

مودة الصابرين وفخيرة الشاكرين

للإمام ابن قيم الجوزية

هَدَّيْهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ
إِبْرَاهِيمُ سُلَيْمَانُ الشَّيْخُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ

الحمد لله



دار الكتابية للتراث

عُدَّةُ الصَّابِرِينَ وَذَخِيرَةُ الشَّاكِرِينَ

للإمام ابن قيم الجوزية

هَدَّيْهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ
إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَلِيٍّ الشَّيْخُ

تم تخریج الأحادیث
بمعرفة الدار

دار الطباعة للتراث

كتاب قد حوى درراً بعين الحسن ملحوظة
لهذا قلت تنبيهاً

كافة حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أعان عباده بالصبر ، وكافأهم عليه بالأجر ، وأمدهم بنعمه ،
ومن نعمه شكره . فالفضل منه وإليه ، والإحسان كله بيديه . يشكر على القليل ،
ويجازى عليه الجزاء الوفير . ويصبر على من عصاه ، ويتحجب إليه بنعمه ، ويداويه ببلائه
ويجازى على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف أو يزيد ، وعلى السيئة بمثلها أو
يغفر . سبحانه سبحانه .. هو الغفور الشكور ، وهو الحميد الصبور ، الذى جلت
عظمته ، وتعال قدرته ، وجسمت منته .

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد ؛ سيد الصابرين ، وأعظم
الشاكرين ، وصاحب لواء الحمد ، وسيد ولد آدم أجمعين ، وعلى آله وصحبه الطيبين
الطاهرين ، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين ، وعلى ذريته ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم
الدين .

وبعد .. فإنه لما عزمت « دار الصحابة للتراث بطنطا » على القيام بتهديب كتب
ابن القيم رحمه الله ، فقد شاركت بجهد ضئيل من هذا المشروع ، وهو كما يقال :
« جهد المقل » ، وقمت باختصار وتهديب كتاب « عدة الصابرين وذخيرة
الشاكرين » .

والحق يقال .. فإن كلام ابن القيم كله درر وفوائد ، ويعز على النفس اختصاره ،
بل ربما حزن المرء على حذف كلمة من كلامه رحمه الله .

ولكن ابن القيم كثيرا ما يستطرد إلى موضوعات قد تمس من بعيد جدا موضوع
كتابه ، ومن خلال ذلك يمتعنا بعلمه الغزير ، وفوائده الجمّة ، وأسلوبه السلس
الجذاب ، حتى إن المرء ربما ينسى فى زحمة ذلك موضوعه الأصلي ، وينشغل بذلك
الموضوع أو بتلك الفائدة التى عرج عليها رحمه الله .

لما كان ذلك .. فقد رأينا أن نحذف بعض هذه الاستطرادات ونلخص بعض هذه الأبواب التي تبعد شيئاً ما عن لب الكتاب ؛ فتطرح إشكالات أو تحل خلافات في موضوعات جانبية .

وكان كل ذلك حرصاً على طَلَبَةِ قارئ اليوم ، ذلك الذي يريد أن يقرأ شيئاً ملخصاً ومغنياً في نفس الوقت . وليس معنى ذلك أننا قد أدخلنا بمادة الكتاب أو سطونا عليها أو عَرَضناها للضياع ، كلا .. بل أبقينا عليها إلا ما سبق أن استثنيناه (*) ، مع إبقائنا كلام ابن القيم كما هو ، إلا في أضيق الحدود التي تصرفنا فيها لتبيين معنى أو توضيح غموض . ثم قمنا بعد ذلك بالتعليق على بعض المواضع في الكتاب . ومع ذلك فنحن لا ننسب هذا الكلام جملة إلى ابن القيم رحمه الله ، بل نؤكد أن فيه بعض الإضافات التي أضفناها للربط بين المعاني والتوثيق بين الفقرات ، وعلى من أراد أن ينسب الكلام إلى ابن القيم أن يراجع نص كتاب « عدة الصابرين » - وهو الكتاب الأصلي - كي يتثبت مما ينقل .

ثم قلم أحد الإخوة الباحثين بدار الصحابة بتخريج الأحاديث المرفوعة التي في الكتاب ، حتى يكون القارئ الكريم على ثقة من هذه الأحاديث ، وعلم بدرجاتها ، ويعمل بها وهو على يقين بأنها الحق الذي لا مرية فيه ، أو يتركها لأنها لم تثبت صحتها عن النبي ﷺ .

وبعد ... فهذه بضاعة مزجاة ، وجهد مقل . فإن كنا قد وفقنا فمن الله وحده ، وإن كانت الأخرى فمن أنفسنا ومن الشيطان ، والله برىء من ذلك ورسوله . وأخيراً نقول كما قال ربنا : ﴿ إِن أَرِيدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : ٨٨] ، وصلى الله وسلم على عبده ونبيه محمد .

إبراهيم سليمان الشيخ

(*) من أمثلة ما تم حذفه : تحديد مواضع آيات الصبر والشكر في كل سور القرآن بعد أن ذكر عندها . وكذلك : حذف كلام ابن القيم عن الأمثلة التي ضربت في الدنيا وما إلى ذلك مما لا يتدخل في لب موضوعه .

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله الصبور الشكور العلى الكبير ، السميع البصير ، العليم القدير ، الذى شملت قدرته كل مخلوق ، وجرت مشيئته فى خلقه بتصاريف الأمور ، وأسمعت دعوته لليوم الموعود أصحاب القبور . قدر مقادير الخلائق وآجالهم ، وكتب آثارهم وأعمالهم ، وقسم بينهم معاشهم وأمواتهم ، وخلق الموت والحياة ليلوهم أيهم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . القاهر القادر ، فكل عسير عليه يسير ، وهو المولى النصير ، فنعم المولى ونعم النصير . يسبح له ما فى السماوات وما فى الأرض وله الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير . هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير . خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير . يعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إله جل عن الشبيه والنظير ، وتعالى عن الشريك والظهير ، وتقدس عن تعطيل الملحين كما تنزه عن شبه المخلوقين ، فليس كمثله شئ وهو السميع البصير .

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وخيرته من بريته ، وصفوته من خليقته ، وأمينه على وحيه ، وسفيره بينه وبين عباده . أعرف الخلق به ، وأقومهم بخشيته ، وأنصحهم لأئمة ، وأصبرهم لحكمه ، وأشكرهم لنعمه ، وأقربهم إليه وسيلة ، وأعلاهم عنده منزلة ، وأعظمهم عنده جاها ، وأوسعهم عنده شفاعة . بعثه إلى الجنة داعيا ، ولإيمان مناديا ، وفى مرضاته ساعيا ، وبالمعروف آمرا وعن المنكر ناهيا . فبلغ رسالات ربه ، وصدع بأمره ، وتحمل فى مرضاته ما لم يتحمله بشر سواه . فثبت فى مقام الصبر حتى لم يلحقه أحد من الصابرين ، وترقى فى درجة الشكر حتى علا فوق جميع الشاكرين .

فحمد الله وملائكته ورسله وجميع المؤمنين ، ولذلك خص بلواء الحمد دون جميع العالمين ، فأدم تحت لوائه ، ومن دونه الأنبياء والمرسلين ، وجعل الحمد فاتحة كتابه الذي أنزله عليه ؛ كذلك فيما بلغنا ، وفي التوراة والإنجيل ، وجعله^(١) آخر دعوى أهل ثوابه الذين هداهم على يديه ، وسمى أمته الحامدين قبل أن يخرجهم إلى الوجود ؛ لحمدهم له على السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، وجعلهم أسبق الأمم إلى دار الثواب والجزاء ، فأقرب الخلق إلى لوائه أكثرهم حمداً لله وذكره ، كما أن أعلاهم منزلة أكثرهم صبرا وشكرا . فصلى الله وملائكته وأنبيأوه ورسله وجميع المؤمنين عليه - كما وحد الله وعرف به ودعا إليه - وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد ... فإن الله سبحانه جعل الصبر جوادا لا يكبو ، وصارما لا ينبو ، وجندا غالبا لا يهزم ، وحصنا حصينا لا يهدم ولا يثلم ، فهو والنصر أخوان شقيقان ، فالنصر مع الصبر ، والفرج مع الكرب ، والعسر مع اليسر ، وهو^(٢) أنصر لصاحبه من الرجال بلا علة ولا عدد .

ولقد تكفل الله سبحانه لأهل الصبر أن يوفهم أجرهم بغير حساب ، وأخير أنه معهم بهديته ونصره العزيز وفتحته المبين ، فقال تعالى : ﴿ واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ [الأنفال : ٤٦] وبهذه المعية ظفر الصابرون بخير الدين والآخرة ، وفازوا بالنعمة الباطنة والظاهرة .

وجعل سبحانه الإمامة في الدين أساسها الصبر واليقين ، فقال تعالى : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ [السجدة : ٢٤] .
وأخبر أن الصبر خير لأهله ، فقال تعالى : ﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ [النحل : ١٢٦] .

(١) أى الحمد ، وذلك مصداقا لقوله تعالى : ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ [من الآية ١٠ بسورة التل] .

(٢) المقصود هنا : الصبر .

وأخبر أن كيد العدو مهما عظم فإنه لا يضر إذا توفر الصبر والتقوى ، فقال تعالى : ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ، إن الله بما يعملون محيط ﴾ [آل عمران : ١٢٠] .

وأخبر سبحانه أن الصبر والتقوى يوصلان إلى العز والتمكين ، فقال تعالى على لسان يوسف عليه السلام : ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ [يوسف : ٩٠] .

وعلق الفلاح بهما فقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] .

وأخبر عن محبته لأهل الصبر ، فقال تعالى : ﴿ والله يحب الصابرين ﴾ وبشر الصابرين فقال تعالى : ﴿ وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ [البقرة : ١٥٥ - ١٥٧] .

وأوصى بالاستعانة بالصبر والصلاة على النوائب ، فقال تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ [البقرة : ٤٥] وأخبر أن الرغبة في ثوابه والإعراض عن زينة الدنيا لا ينالها إلا الصابرون ، فقال تعالى : ﴿ ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾ [القصص : ٨٠] .

وأقسم سبحانه أن الإنسان في خسر : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ [العصر : ٣] .

وخص سبحانه أهل الميمنة بالتواصي بالصبر والرحمة .

وخص أهل الصبر والشكر بالانتفاع بآياته ، فقال في أربع آيات من كتابه : ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ [إبراهيم : ٥] ، لقمان : ٣١ ، سبأ : ١٩ ، الشورى : ٣٣] .

وعلق المغفرة والأجر بالعمل الصالح والصبر فقال : ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك هم مغفرون وأجر كبير ﴾ [هود : ١١] .

وأخير أن الصبر والمغفرة من عزائم الأمور فقال : ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ [الشورى : ٤٣] .

وأمر رسوله بالصبر لحكمه ؛ فقال : ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ [الطور : ٤٨] وقال : ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾ ^(١) [النحل : ١٢٧] .

والصبر آخية ^(٢) المؤمن التي يجول ثم يرجع إليها ، وساق إيمانه الذي لا اعتماد له إلا عليها ، فلا إيمان لمن لا صبر له ، وإن كان فإيمان قليل في غاية الضعف ، وصاحبه ممن يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير أطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ولم يحظ منها إلا بالصفقة الخاسرة .

فخير عيش أدركه السعداء بصبرهم ، وترقوا إلى أعلى المنازل بشكرهم ، فساروا بين جناحي الصبر والشكر إلى جنات النعيم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

* * *

ولما كان الإيمان نصفين ، نصف صبر ونصف شكر ، كان حقيقا على من نصح نفسه وأحب نجاتها وآثر سعادتها أن لا يهمل هذين الأصلين العظيمين ولا يعدل عن هذين الطريقين القاصدين ، وأن يجعل سيره إلى الله بين هذين الطريقين ، ليجعله الله يوم لقائه مع خير الفريقين .

فكذلك وضع هذا الكتاب للتعريف بشدة الحاجة والضرورة إليهما ، وبيان توقف سعادة الدنيا والآخرة عليهما ، فجاء كتابا جامعا حاويا نافعا ، فيه كثير من الفوائد التي لا تكاد تظفر بها في كتاب .

(١) ذكر ابن القيم - رحمه الله - قول الإمام أحمد رحمه الله : « ذكر الله سبحانه الصبر في القرآن في تسعين موضعا » وقد قسم الإمام ابن القيم الأنواع التي سيق فيها الصبر إلى اثنين وعشرين نوعا ، فعلى من أراد تفصيلها مراجعة الباب الخامس عشر من الكتاب الأصلي .

(٢) هي العروة التي تشد إليها اللبابة .

وذلك محض منة من الله على عبده وعطية من بعض عطاياه .. ومع هذا فهو جهد المقل وقدرة المفلس ، حذر فيه من الداء وإن كان من أهله ، ووصف فيه اللواء وإن لم يصبر على تناوله لظلمه وجهله .

وهو يرجو أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين أن يغفر له غيه لنفسه بنصيحته لعباده المؤمنين . فما كان في الكتاب من صواب فمن الله وحده ، فهو محمود وهو المستعان . وما كان فيه من خطأ فمن مصنفه ومن الشيطان ، والله برى ، منه ورسوله . وقد جعلته ستة وعشرين باباً وخاتمة .

سميته « عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين » والله المستول أن يجعله خالصاً لوجهه مدنياً من رضاه ، وأن ينفع به مؤلفه وكاتبه وقارئه ، إنه سميع الدعاء وأهل الرجاء ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الباب الأول :

معنى الصبر لغة

أصل هذه الكلمة هو المنع والحبس ، فالصبر حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكى والجوارح عن لطم الخلود وشق الثياب ونحوهما .

ويقال : صبرت فلانا : إذا حبسته ، وصبرته : بالتشديد إذا حملته على الصبر .

وقيل أصل الكلمة من الشدة والقوة . ومنه « الصبر » للدواء المعروف لشدة مرارته وكراهته . وقيل مأخوذ من الجمع والضم .

والتحقيق أن فى الصبر المعانى الثلاثة : المنع ، والشدة ، والضم . ويقال : صبر :

إذا أتى بالصبر ، وتصبر : إذا تكلفه واستدعاه ، واصطبر : إذا اكتسبه وتعلمه ، وصابر :

إذا وقف خصمه فى مقام الصبر ، وصبر نفسه وغيره : إذا حملها على الصبر .

الباب الثاني :

حقيقة الصبر (*)

الصبر خلق فاضل من أخلاق النفس يُمتنع به من فعل ما لا يحسن ، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها . وسئل عنه الجنيد فقال : « تجرع المرارة من غير تعبس » . وقال ذو النون : « هو التباعد عن المخالفات ، والسكون عند تجرع غصص البلية ، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة » .

وقيل : « الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب » ، وقيل : « هو الغنى في البلوى بلا ظهور شكوى » . وقال أبو عثمان : « الصبار هو الذى عود نفسه الهجوم على المكاره » ، وقيل : « الصبر : المقام على البلاء بحسن الصلابة كالمقام مع العافية » ومعنى هذا أن لله على العبد عبودية فى عافيته وفى بلائه ، فعليه أن يحسن الشكر فى العافية ويحسن الصبر فى البلاء .

وقال عمرو بن عثمان المكي : « الصبر هو الثبات مع الله ، وتلقى بلائه بالرحب والدعة » ومعنى هذا أنه يتلقى البلاء بصدر واسع ، لا يتعلق بالضيق والسخط والشكوى .

وقال الخواص : « الصبر الثبات على أحكام الكتاب والسنة » . وقال رويم : « الصبر ترك الشكوى » . وقال غيره : « الصبر هو الاستعانة بالله » . وقال أبو على : « الصبر كاسمه » . وقال على بن أبى طالب : « الصبر مطية لا تكبو » . وقال أبو على الدقاق : « حد الصبر أن لا يعترض على التقدير » فأما إظهار البلاء على غير وجه الشكوى فلا ينافي الصبر قال الله تعالى فى قصة أيوب : ﴿ إنا وجدناه صابرا ﴾ [ص : ٤٤] مع قوله : ﴿ مسنى الضر ﴾ [الأنبياء : ٨٣] .

(*) فى هذا الباب بين ابن القيم - رحمه الله - حقيقة الصبر وأنه هو ثبات القلب على طاعة الله وعلى عدم معصيته وعلى تحمل البلاء ، وعدم الشكوى إلا إلى الله ، وأن الصبر إنما هو لازم للإنسان على الدوام وفى جميع أحواله .

والشكوى نوعان : (أحدهما) : الشكوى إلى الله وهي لا تنافي الصبر كما قال يعقوب : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف : ٨٦] مع قوله : ﴿ فَصَبِرْ جَهِيلٌ ﴾ [يوسف : ١٨ ، ٨٣] . وقال موسى عليه السلام : « اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، وبك المستغاث ، وعليك التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

(والنوع الثاني) : شكوى المبتلى ، بلسان حاله أو بلسان مقاله ، وهي تنافي الصبر ، بل تضاده وتبطله .

وقيل : « الصبر شجاعة النفس » ومن ها هنا أخذ قول : « الشجاعة صبر ساعة » . وقيل : « الصبر ثبات القلب عند موارد الاضطراب » .

والصبر والجزع ضدان ، ولهذا يقابل أحدهما بالآخر ، قال تعالى عن أهل النار : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ [إبراهيم : ٢١] ، والجزع قرين العجز وشقيقه ، والصبر قرين الكَيْس^(١) ومادته . والنفس مطية العبد التي يسير عليها إلى الجنة أو النار ، والصبر لها بمنزلة الخطام والزمام للمطية ، فإن لم يكن للمطية خطام ولا زمام شردت في كل مذهب .

وحفظ من خطب الحجاج : « اقدعوا هذه النفوس فإنها طلعة إلى كل سوء ، فرحم الله امرأ جعل لنفسه خطاما وزماما فقادها بخطامها إلى طاعة الله وصرفها بزمامها عن معاصي الله ؛ فإن الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذابه » .

(قلت) : والنفس فيها قوتان : قوة الإقدام ، وقوة الإحجام ، فحقيقة الصبر أن يجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعه ، وقوة الإحجام إمساكا عما يضره . ومن الناس من يكون صبره على ما ينفعه وثباته عليه أقوى من صبره عما يضره فيصبر على مشقة الطاعة ولا صبر له عن ارتكاب المعصية ، ومنهم من تكون قوة صبره عن المخالفات أقوى من صبره على مشقة الطاعات ، ومنهم من لا صبر له على هذا ولا على ذاك . وأفضل الناس أصبرهم على النوعين .

(١) الكيس : العقل والفطنة .

وقيل : « الصبر ثبات باعث العقل والدين في مقابلة باعث الهوى والشهوة »
ومعنى هذا : أن الإنسان يجب مايدعوه إليه هواه وشهوته ، وأن العقل والدين في حرب
دائمة مع الشهوة والهوى ، والنصر في هذه الحرب متعلق بقلب العبد وصبره وشجاعته
وثباته على الحق والطاعة .

وللصبر ارتباط بجميع مقامات الدين - سواء كان فعلاً أو تركاً - وله أسماء كثيرة
بحسب متعلقه ، فالصبر عن الفواحش يسمى عفة ، والصبر على الجهاد يسمى شجاعة ،
وعلى الإنفاق يسمى جوداً . وإذا كان للتسوية بين متماثلين سمي عدلاً . وهكذا تتنوع
أسماءه بحسب متعلقه .

الباب الثالث :

الفرق بين الصبر والتصبر والاصطبار والمصابرة

الصبر : هو حبس العبد لنفسه ومنعها من إجابة داعي ما لا يحسن (إذا كان هذا الحبس والمنع مخلقا للعبد ومملكة له) . وإن كان بتكلف وتمرن سمي تصبرا ، وإذا تكلف العبد الصبر صار سجية له كما في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « ومن يتصبر يصبره الله » (١) .

وأما الاصطبار : فهو أبلغ من التصبر ، فإنه افتعال للصبر بمنزلة الاكتساب ، فالتصبر مبدأ الاصطبار ، كما أن التكسب مقدمة الاكتساب ، فلا يزال التصبر يتكرر حتى يصيرا اصطبارا .

وأما المصابرة : فهي مقاومة الخصم في ميدان الصبر ، فإنها مفاعلة ، والمفاعلة تكون بين اثنين كالمشاتمة والمضاربة .

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] فأمرهم بالصبر وهو حال الصابر في نفسه ، والمصابرة وهي حاله في الصبر مع خصمه ، والمرابطة وهي الثبات وال لزوم والإقامة على الصبر والمصابرة .

ولما كان العبد قد يصبر ولا يصابر ، وقد يصابر ولا يرباط ، وقد يصبر ويصابر ويرباط من غير تعبد بالتقوى . فقد أخبر سبحانه أن ملاك ذلك كله التقوى وأن الفلاح موقوف عليها فقال : ﴿ واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ .

فالمرابطة كما أنها لزوم الثغر الذي يخاف هجوم العدو منه في الظاهر ، فهي لزوم ثغر القلب لئلا يدخل منه الهوى والشيطان فيزيله عن مملكته .

(١) أخرجه مالك [٩٩٧/٢] ، ومن طريقة البخارى [٣٣٥/٣] ، ومسلم [٧٢٩/٢] عبد الباقي [] ، وأبو داود [١٢١/٢] ، والنسائي [٢٥٨٨] ، والترمذي [٢٠٢٤] وقال حديث حسن صحيح ، والبيهقي [١٩٥/٤] ، وابن حبان [١٧٠/٥] ، عن ابن شهاب عن عطاء بن يزيد الليثي عن أبي سعيد الخدري به .

الباب الرابع :

انقسام الصبر باعتبار محله (*)

الصبر ضربان : ضرب بدنى وضرب نفسانى ، وكل منهما نوعان : اختيارى واضطرارى ، فهذه أربعة أقسام .

الأول : بدنى اختيارى ، كتعاطى الأعمال الشاقة على البدن باختيار الإنسان وإرادته .

الثانى : بدنى اضطرارى ، كالصبر على الألم والمرض والجراحات والبرد والحر وغير ذلك .

الثالث : نفسانى اختيارى ، كصبر النفس عن فعل ما لا يحسن فعله ، لأن الشرع يقبحه ، أو لأن العقل لا يستحسنه .

الرابع : نفسانى اضطرارى ، كصبر النفس عن محبوبها قهرا إذا حيل بينها وبينه . ومن صبر على القسمين الاضطراريين ، ولم يصبر على القسمين الاختياريين فلا يعد صابرا .

والجن تشارك الإنس فى هذا الصبر الاختيارى ، لأنه من لوازم التكليف ، والجن مكلفون بالصبر على الأوامر^(١) ، والصبر عن النواهي^(٢) كما كلفنا نحن بذلك .

أما الملائكة فلا يتصور فى حقهم الصبر ، لأنهم لم يبتلوا بهوى يحارب عقولهم ، بل العبادة والطاعة لهم كالنفس لنا . وإن كان لهم صبر يليق بهم وهو ثباتهم على ما خلقوا له من غير منازعة هوى أو شهوة أو طبع .

(*) أقسام الصبر هذه يشترك فيها الإنسان والحيوان فى النوعين الاضطراريين ولا يفترق الإنسان عن الحيوان إلا بالصبر الاختيارى ، لأنه يكون بإرادة الإنسان ، أما الاضطرارى فلا دخل للإنسان فيه .

(١) أى الصبر على القيام بها .

(٢) أى الصبر عن الانتهاء عنها .

فالإنسان إذا غلب صبرُه هواه وشهوته التحق بالملائكة ، وإن غلب هواه وشهوته صبره التحق بالشياطين ، وإذا غلب طبعُه من الأكل والشرب والجماع صبره التحق بالبهائم .

قال قتادة : « خلق الله سبحانه الملائكة عقولا بلا شهوات ، وخلق البهائم شهوات بلا عقول ، وخلق الإنسان وجعل له عقلا وشهوة ، فمن غلب عقله شهوته فهو مع الملائكة ، ومن غلبت شهوته عقله فهو كالبهائم » .

الباب الخامس :

قوة الصبر وضعفه(*)

وباعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال :

إحداها : أن يكون القهر والغلبة لداعى الدين فيرد جيش الهوى مغلولاً . وهذه الحالة يتوصل إليها بدوام الصبر ، والواصلون إلى هذه الرتبة هم المنصورون في الدنيا والآخرة ، وهم الذين قالوا : ﴿ ربنا الله ثم استقاموا ﴾ [فصلت : ٣٠] ، وهم الذين تقول لهم الملائكة عند الموت : ﴿ ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ [فصلت : ٣٠ : ٣١] .

وهم الذين نالوا معية الله ، وهم الذين جاهدوا فى الله حق جهاده ، وهم الذين خصهم الله بهدايته دون من عداهم .

الحالة الثانية : أن تكون القوة والغلبة لداعى الهوى ، فلا ينازعه باعث الدين بالكلية ، فيستسلم للبائس للشيطان وجنده فيقودونه حيث شاءوا ، وله معهم حالتان :

إحدهما : أن يكون من جندهم وأتباعهم ، وهذه حال العاجز الضعيف .

والثانية : أن يكون الشيطان من جنده ، وهذه حال الفاجر القوى ذى السلطان والمبتدع الذى يدعو إلى بدعته ويتبعه الناس ، كما قال القائل :

و كنت امراً من جند إبليس فارتنى
فى الحال حتى صار إبليس من جندى

وهؤلاء هم الذين غلبت عليهم شقوتهم واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة . وإنما صاروا إلى هذه الحال لما أفلسوا من الصبر . وهذه حالة هـد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء

(*) إنما تكون قوة الصبر وضعفه حسب تمكن الإنسان من هواه وشهواته ، فإذا تمكن الإنسان من هواه وسهل عليه قهر شهواته كان الصبر من أيسر الأمور عليه . وإذا تمكنت الشهوة والهوى من الإنسان كان الصبر أصعب شيء وأثقله على نفسه ، فلا يقوم به أبداً . وإذا تغلب على هواه مرة وتغلب هواه عليه أخرى كان صبره بحسب ذلك ، والتوفيق لمن وفقه الله .

وشماتة الأعداء . وجند أصحابها : سحر واحداً والأمانى الباطلة والغرور والتسويق بالعمل وطول الأمل وإيثار الآجل على العاجل ، وهى التى قال النبى ﷺ فى صاحبها : « العاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » (١) .

وأصحاب هذه الحال أنواع شتى ، فمنهم المحارب لله ورسوله الذى يصد عن سبيله ويبغىها عوجاً ، ومنهم المعرض عن الشرع المقبل على دنياه وشهواته ، ومنهم المنافق ، ومنهم الماكن الذى قطع نفسه بالمحون ، ومنهم من تعذرت عليه التوبة ، ومنهم من يئس من نفسه وعمله ، ومنهم من يغتر بعفو الله ولا يترك المعاصى ، ومنهم من يقول : سوف أتوب قبل الموت ، إلى غير ذلك من أصناف المغترين الذين صارت عقولهم فى أيدي شهواتهم ؛ فلا يستعمل أحدهم عقله إلا فى دقائق الحيل التى يتوصل بها إلى قضاء شهوته .

من أذل عقله ودينه أذله الله

وهذا المغرور لما أذل سلطان الله الذى أعزه به وشرفه ورفع به قدره وسلمه فى يد أبغض أعدائه إليه ، وجعله أسيراً له تحت قهره وتصرفه وسلطانه سلط الله عليه من جعله تحت قهره وتصرفه وسلطانه يسخره حيث شاء ، ويسخر منه هو وجنده وحزبه . فصار بمنزلة من سلم نفسه إلى أعدى عدو له يسومه سوء العذاب ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : ٩٨ - ١٠٠] .

(١) أخرجه الترمذى [٢٤٥٩] وحسنه ، وابن ماجه [١٤٢٣/٢] ، وأحمد [١٢٤/٤] ، وابن المبارك و الزهد [١٧١] ، والبيهقى [٣٠/١٤] ، من حديث شبلد بن أوس .

وقال الألبانى فى تعليقه على المشكاة [٥٢٨٩] : إسناده ضعيف .

(تنبيه) لفظة (الأمانى) ليست فى شيء من هذه المصادر ، ولكن وجدت فى مسند الفردوس [٤٩٣٠] ، وهو خالف من الأسانيد .

الحالة الثالثة : أن تكون الحرب سجلا ودولا بين الجندين ، فتارة له وتارة عليه ، وتكثر نوبات الانتصار وتقل ، وهذه حال أكثر المؤمنين الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا .

وتكون الحال يوم القيامة موازنة لهذه الأحوال الثلاث سواء بسواء ، فمن الناس من يدخل الجنة ولا يدخل النار ، ومنهم من يدخل النار ولا يدخل الجنة ، ومنهم من يدخل النار ثم يدخل الجنة .

قوة الصبر حسب قوة الدين

ومن الناس من يصبر بجهد ومشقة ، ومنهم من يصبر بأدنى حمل على النفس . ومثال الأول : كرجل صارع رجلا شديدا فلا يقهره إلا بتعب ومشقة ، والثاني : كمن صارع رجلا ضعيفا فإنه يصصره بغير مشقة . فهكذا تكون المصارعة بين جنود الرحمن وجنود الشيطان .

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « لقي رجل من الإنس رجلا من الجن فصارعه ، فصصره الإنسى فقال : ما لى أراك صثيلا ؟ فقال : إني من بينهم لضليع » فقالوا : أهو عمر بن الخطاب ؟ فقال : « من ترونه غير عمر ؟! » .

وقال بعض الصحابة : « إن المؤمن ينضى^(١) شيطانه كما ينضى أحدكم بغيره في السفر » .

وعن بعض السلف « أن شيطانا لقي شيطانا فقال : ما لى أراك شحيبا ؟ فقال : إني مع رجل إن أكل ذكر اسم الله فلا آكل معه ، وإن شرب ذكر اسم الله فلا أشرب معه ، وإن دخل بيته ذكر اسم الله فأبيت خارج الدار . فقال الآخر : لكننى مع رجل

(١) لم أجده موقوفاً . ووجدته مرفوعاً عند أحمد من حديث أبى هريرة [٢٨٠/٢] ، وضعفه الشيخ الألبانى في ضعيف الجامع برقم [١٧٧٢] .

إن أكل لم يسم الله فأكل أنا وهو جميعا ، وإن شرب لم يسم الله فأشرب معه ، وإن دنا
داره لم يسم الله فأدخل معه ، وإن جامع امرأته لم يسم الله فأجامعها » .
فمن اعتاد الصبر هابه عدوه ، ومن عز عليه الصبر طمع فيه عدوه وأوشك
ينال منه غرضه .

الباب السادس :

أقسام الصبر باعتبار متعلقه(*)

الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام : صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها ، وصبر عن المناهى والمخالفات حتى لا يقع فيها ، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها .

وهذه الثلاثة هي التي أوصى بها لقمان ابنه في قوله : ﴿ يا بني أقم الصلاة أومر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ﴾ [لقمان : ١٧] . فأمره بالمعروف يتناول فعله بنفسه وأمره غيره به ، وكذلك نهيه عن المنكر .

وذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة في قوله : ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا يتنقضون الميثاق * والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب * والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ﴾ [الرعد : ١٩ - ٢٢] .

فجمع لهم مقامات الإسلام والإيمان في هذه الأوصاف . فوصفهم بالوفاء بعهد الذى عاهدهم عليه ، وذلك يعم أمره ونهيه الذى عهد إليهم بينهم وبينه ، وبينهم وبين خلقه . ثم أخبر عن استمرارهم بالوفاء بأنهم لا يقع منهم نقضه . ثم وصفهم بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويدخل في هذا ظاهر الدين وباطنه وحق الله وحق خلقه^(١) .

(*) لابد للإنسان من صبر على طاعة ربه حتى يقوم بها ويتحمل تكاليفها التي تصعب على النفس ، ولابد له أيضا من صبر عن معصية ربه أى صبر على عدم طاعة هواه وشهوته فيما لا يحبه ربه ، كما أنه لابد له أيضا من صبر على قضاء الله وقدره الذى ربما أنه لا تحب نفسه .

(١) وقد فصل ابن القيم رحمه الله كيف يدخل الدين كله فيما أمر الله به أن يوصل . فراجع إن شئت في « الباب السابع » بالكتاب الأصل .

ثم وصفهم بالحامل لهم على هذه الصلة وهو خشيته وخوف سوء الحساب يوم المآب ، ولا يمكن لأحد قط أن يصل ما أمر الله بوصله إلا بخشيته ، ومتى ترحلت الخشية من القلب انقطع هذا الوصل .

ثم جمع لهم - سبحانه - ذلك كله في أصل واحد هو أساس ذلك وقاعدته ومداره الذى يدور عليه وهو الصبر فقال : ﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ﴾ . فلم يكتف منهم بمجرد الصبر حتى يكون خالصا لوجهه ثم ذكر لهم ما يعينهم على الصبر وهو الصلاة فقال : ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ .

وهذان هما العونان على مصالح الدنيا والآخرة ، وهما : الصبر والصلاة فقال تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ [البقرة : ٤٥] وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾ [البقرة : ١٥٣] .

ثم ذكر سبحانه إحسانهم إلى غيرهم بالإتفاق عليهم سرا وعلانية ، فأحسنوا إلى أنفسهم بالصبر والصلاة ، وإلى غيرهم بالإتفاق .

ثم ذكر حالهم إذا جهل عليهم وأوذوا أنهم لا يقابلون ذلك بمثله بل يحسنون إلى من يسئ إليهم فقال : ﴿ ويدفعون بالحسنة السيئة ﴾ .

والمقصود أن هذه الآيات تناولت مقامات الإسلام والإيمان كلها ؛ اشتملت على فعل المأمور ، وترك المحذور ، والصبر على المقدور . وقد ذكر تعالى هذه الأصول الثلاثة في قوله : ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ﴾ [آل عمران : ١٢٥] ، وقوله : ﴿ إنه من يتق ويصبر ﴾ [يوسف : ٩٠] ، وقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] .

فكل موضع قرن فيه التقوى بالصبر اشتمل على الأمور الثلاثة ، فإن حقيقة التقوى : فعل المأمور وترك المحذور .

الباب السابع :

انقسام الصبر باعتبار الأحكام الخمسة(*)

. وهو ينقسم بهذا الاعتبار إلى : واجب ، ومنسوب ، ومحذور ، ومكروه ، ومباح .

فالصبر الواجب ثلاثة أنواع : أحدها : الصبر عن المحرمات ، والثاني : انصبر على أداء الواجبات ، والثالث : الصبر على المصائب التي لا صنع للعبد فيها كالأفراض والفقر وغيرها .

وأما المحذور فأنواع : أحدها : الصبر على الطعام والشراب حتى الموت ، وكذلك الصبر عن الميتة والدم ولحم الخنزير عند المخمصة فإنه حرام إذا خاف العبد بترك الموت ؛ قال طاووس وبعده الإمام أحمد : « من اضطر إلى أكل الميتة والدم فلم يأكل فمات دخل النار » .

(*) والصبر - مثل غيره من الأفعال - له أحكام متعددة ، فقد يكون واجباً ، أو مندوباً ، أو محظوراً ، أو مكروهاً ، أو مباحاً . حسب ما يتعلق به مما يصبر عنه الإنسان . ولتوضح معنى هذه الأحكام باختصار .

فالواجب : هو مرادف الفرض عند الجمهور ، وهو ما طلب فعله على وجه اللزوم بحيث يأثم تاركه ويثاب فاعله .

والمندوب : هو ما طلب الشارع فعله طلباً غير لازم ، وهو ما يثاب فاعله ، ولا يعاقب تاركه (وهو المستحب) :

والمحذور : هو الحرام . وهو ضد الواجب ، يعاقب فاعله ، يثاب تاركه .

والمكروه : هو ما تركه خير من فعله ، ولا يذم فاعله ، ويمدح تاركه .

والمباح : هو ما لا يتعلق به أمر ولا نهي . وهو الحلال والمجازز .

هل يجوز سؤال الناس عند الخمصة ؟

فإن قيل : فما تقولون في الصبر عن المسألة^(١) في هذه الحال ؟

قيل : اختلف في حكمه [أى الصبر] هل هو حرام أم مباح على قولين : فقال بعض أصحاب الإمام أحمد بجواز الصبر^(٢) . وقال كثير من الخنابلة والشافعية : يجب عليه المسألة وإن لم يسأل كان عاصيا لأن المسألة تتضمن نجاته من التلف .

ومن الصبر المخطور : صبر الإنسان على ما يقصد هلاكه ؛ من سبع أوحية أو حريق أو ماء أو كافر يريد قتله .

وهذا بخلاف استسلامه وصبره في الفتنة وقتال المسلمين ، فإنه مباح له ، بل يستحب كما دلت عليه النصوص الكثيرة - وقد سئل النبي ﷺ عن هذه المسألة بعينها فقال : « كن كخير ابني آدم »^(٣) وفي لفظ : « كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل »^(٤) .

(١) المسألة : أى سؤال الناس أن يطعموه .

(٢) وظاهر لفظ الإمام أحمد أن الصبر عن المسألة جائز ، فإنه قيل له : إذا خاف إن لم يسأل أن يموت ، فقال : لا يموت ... يأتيه الله برزقه ، أو كما قال : يعنى أن الله سبحانه متى علم ضرورته وصدقه في ترك المسألة فإنه ييسر له الرزق .

(٣) أخرجه أبو داود [٤٢٥٩] ، والترمذى [٢٢٠٤] وقال هذا حديث حسن غريب صحيح ، وابن ماجه [٣٩٦١] ، والبيهقى [١٩١/٨] من حديث أبى موسى الأشعرى . ولفظ الترمذى [كونوا كإبن آدم] .

وصححه الشيخ الألبانى في صحيح ابن ماجه برقم [٣٢٠٠] .

(٤) أخرجه أحمد [١٦٠/٥] ، والطبرانى [٦٠/٤] عن حميد بن هلال عن رجل من عبد القيس كان مع الخوارج ثم فارقهم عن عبد الله بن خباب عن أبيه . وفيه قصة قال الألبانى في إرواء الغليل [١٠٣/٨] : ورجاله ثقات غير الرجل الذى لم يسم . وله شاهد عند الطبرانى [١٧٧/٢] ، من طريق عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن جندب بن سفيان .

قال الألبانى في إرواء الغليل [١٠٤/٨] : وهذا إسناد جيد بالذى قبله فإن شهراً إنما نخشى منه سوء الحفظ ، ومتابعة ذلك الرجل القيسى إياه دليل على أنه قد حفظ . والله أعلم .

وهذا بخلاف قتل الكافر ، فإنه يجب عليه الدفع عن نفسه ، لأن من مقصود الجهاد أن يدفع عن نفسه وعن المسلمين^(١) .

ولا يجوز الصبر على من قصده أو حرمة بالفاحشة .

وأما الصبر المكروه فله أمثلة :

(أحدها) : أن يصبر عن الطعام والشراب واللبس وجماع أهله حتى يتضرر بذلك بدنه .

(الثاني) : صبره عن جماع زوجته إذا احتاجت إلى ذلك ولم يتضرر هو به .

(الثالث) : صبره على فعل المكروه .

(الرابع) : صبره عن فعل المستحب .

وأما الصبر المباح : فهو الصبر عن كل فعل مستوى الطرفين^(٢) تُخَيَّرُ بين فعله وتركه والصبر عليه .

(١) وفي قتال اللصوص تفصيل ، قال ابن القيم : فإن كان عن معصوم غيره وجب ، وإن كان عن نفسه فظاهر نصوصه أنه لا يجب الدفع ، وأوجه بعضهم .

(٢) أى مباح فعله وتركه .

الباب الثامن :

بيان تفاوت درجات الصبر (*)

الصبر كما تقدم نوعان : اختياري واضطراري .

والاختياري أكمل من الاضطراري ، فإن الاضطراري يشترك فيه الناس ، ويتأتى من لا يتأتى منه الصبر الاختياري . ولذلك كان صبر يوسف الصديق عليه السلام عن مطاوعة امرأة العزيز ، وصبره على ما ناله في ذلك من الحبس والمكره أعظم من صبره على ما ناله من أخوته لما ألقوه في الجب وفرقوا بينه وبين أبيه وباعوه بيع العبد .

وكذلك صبر الخليل عليه السلام ، والكليم ، وصبر نوح ، وصبر المسيح ، وصبر خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم ، عليهم الصلاة والسلام ، كان صبرا على الدعوة إلى الله ومجاهدة أعداء الله ، ولهذا سماهم الله أولى العزم وأمر رسوله أن يصبر صبرهم فقال : ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ [الأحقاف : ٣٥] .

وأولو العزم هم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ﴾ [الشورى : ١٣] ، وفي قوله : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ﴾ [الأحزاب : ٧] .

ونهاه سبحانه أن يتشبه بصاحب الحوت حيث لم يصبر صبر أولى العزم فقال : ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ﴾ [القلم : ٤٨] ، أى لا تكن مثله في ضعف صبره لحكم ربه .

(*) إن الصبر الذى يقوم به الإنسان مختاراً هو من أكمل الصبر ، ولذلك فإنه هو الصبر الذى يتعلق بالتكاليف الشرعية (الأوامر والنواهي) وهو صبر الرسل وأتباعهم . والصبر على الأوامر أعظم من الصبر عن النواهي ، بل إنه يتضمن في داخله الصبر عن النواهي ، لأنه لا يتم القيام بالأوامر على الوجه الأكمل إلا بترك المنهيات .

الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر

والله سبحانه أثنى على يونس وغيره من أنبيائه بسؤالهم إياه كشف ما بهم من الضر ، فأثنى على يونس في قوله : ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانه إني كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ [الأنبياء : ٨٧ - ٨٨] . وكذلك أثنى على أيوب بقوله : ﴿ مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ [الأنبياء : ٨٣] ، وعلى يعقوب بقوله : ﴿ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾ [يوسف : ٨٦] ، وعلى موسى بقوله : ﴿ ربي إني لما أنزلت إلي من خير فقير ﴾ [القصص : ٢٤] وشكا إليه خاتم أنبيائه ورسله بقوله : ﴿ اللهم أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي ﴾^(١) .

فالشكوى إليه سبحانه لا تنافي الصبر الجزيل ، بل إعراض عبده عن الشكوى إلى غيره جملة وجعل الشكوى إليه وحده هو الصبر . والله تعالى يبتلي عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودعاءه .

وقد ذم سبحانه من لم يتضرع إليه ولم يستكن له وقت البلاء كما قال تعالى : ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ﴾ [المؤمنون : ٧٦] ، والعبد أضعف من أن يتجلد^(٢) على ربه ، والرب تعالى لم يرد من عبده أن يتجلد عليه ، بل أراد منه أن يستكين له ويتضرع إليه ، وهو تعالى يمقت من يشكوه إلى خلقه ، ويحب من يشكو ما به إليه . وقيل لبعضهم : كيف تشتكى إليه ما ليس يخفى عليه ؟ فقال : ربي يرضى ذل العبد إليه .

(١) قال الميثمي في المجمع [٣٥/٦] : رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق وهو مدلس وبقيه رجاله ثقات .

قال الألباني في (دفاع عن الحديث النبوي والسيرة) : وابن إسحاق مدلس وقد عتته . وضعفه في ضعيف الجامع رقم [١٢٨٠] .

(٢) التجلد : هو إظهار الصبر والقوة وشدة التحمل ، وعدم الشكوى .

والمقصود أنه سبحانه أمر رسوله أن يصبر صبر أولى العزم الذين صبروا لحكمه اختياراً ، وهذا أكمل الصبر . ولهذا دارت الشفاعة يوم القيامة على هؤلاء حتى ردها إلى أفضلهم وخيرهم وأصبرهم لحكم الله ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

أى أنواع الصبر أفضل ؟

فإن قيل : أى أنواع الصبر الثلاثة أكمل : الصبر على المأمور ، أم الصبر عن المحذور ، أم الصبر على المقدور ؟

قيل : الصبر على الأوامر والنواهي (وهو الصبر المتعلق بالتكليف) أفضل من الصبر على مجرد القدر ، فإن هذا الأخير يأتي به البر والفاجر والمؤمن والكافر ولا بد لكل أحد من الصبر عليه اختياراً أو اضطراراً .

وأما الصبر على الأوامر والنواهي فصبر أتباع الرسل ، وأعظمهم أتباعاً أصبرهم في ذلك ، وكل صبر في محله وموضعه أفضل : فالصبر عن الحرام في محله أفضل ، والصبر على الطاعة في محلها أفضل .

فإن قيل : أى الصبرين أحب إلى الله : صبر من يصبر على أوامره ، أم صبر من يصبر عن محارمه ؟

قيل : هذا موضع تنازع فيه الناس . فقالت طائفة : الصبر عن المخالفات أفضل لأنه أشق وأصعب ، ولا يصبر عن المخالفات إلا الصديقون ، ولأن الصبر عن المحرمات صبر على مخالفة هوى النفس وهو أشق شيء وأفضله . ولأن المناهى لها أربعة دواع تدعو إليها : نفس الإنسان ، وشيطانه ، وهواه ، ودنياه ، فلا يتركها حتى يجاهد هذه الأربعة وذلك أشق شيء على النفوس وأمره .

وقالت طائفة أخرى : بل الصبر على فعل المأمور أفضل وأجل من الصبر على ترك المحذور ، لأن فعل المأمور أحب إلى الله من ترك المحذور . ويان ذلك من وجوه :

(منها) : إن فعل المأمور مقصود لذاته ، فإن معرفة الله وتوحيده وعبوديته وحده والإجابة إليه والتوكل عليه وإخلاص العمل له ومحبة والرضا به والقيام في خدمته هو الغاية التي خلق لها الخلق وثبت بها الأمر . وكل ذلك أمر مقصود لذاته .

والمنهيات إنما نهى عنها لأنها صادرة عن ذلك ، أو شاغلة عنه ، أو مفوتة لكماله ، وسائر ما حرمه الله إنما حرمه لذلك . وما كان من المنهيات أكثر صدا عن ذلك أو أكثر إشغالا عنه ، أو أكثر تفويتا لكمال الإنسان ، فإن ربنا سبحانه قد شدد في تحريمها .

(ومنها) : أن المأمورات متعلقة بمعرفة الله وتوحيده وعبادته وذكره وشكره ومحبة والتوكل عليه والإجابة إليه ، فمتعلقها : ذات الرب تعالى وأسمائه وصفاته . ومتعلق المنهيات : ذوات الأشياء المنهى عنها . والفرق من أعظم ما يكون .

(ومنها) : أن ضرورة العبد وحاجته إلى فعل المأمور أعظم من ضرورته إلى ترك المحظور ؛ فإنه أحوج ما يكون إلى معرفة ربه وتوحيده وإخلاص العمل له وإفراجه بالعبودية والمحبة والطاعة . وترك المنهى إنما شرع له تحصيلا لهذا الأمر الذي هو ضروري له وما أحوجه وأفقره إليه .

(ومنها) : أن الذنوب كلها ترجع إلى هذين الأصلين : ترك المأمور وفعل المحظور . ولو فعل العبد المحظور كله من أوله إلى آخره حتى أتى من مأمور الإيمان بأدنى أدنى مثقال ذرة منه نجا بذلك من الخلود في النار . ولو ترك كل محظور ولم يأت بمأمور الإيمان لكان مخلدا في السعير . والفرق بين الأمرين واضح ، بل لا مجال للمقارنة بينهما .

(ومنها) : أن ارتكاب المحظورات جميعها من أولها إلى آخرها يسقط بالتوبة ، ولا تسقط المأمورات بالمخالفة ، إلا بالشرك والوفاة عليه .

(ومنها) : أن ذنب الأب كان بفعل المحظور ، فكان عاقبته أن اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . وذنب أبلّيس كان بترك المأمور ، فكان عاقبته ما ذكر الله سبحانه .

(ومنها) : أن المأمور محبوب إلى الرب . والمنهى مكروه له ، وهو سبحانه إنما قدره وقضاه لأنه ذريعة إلى حصول محبوه من عبده ومن نفسه تعالى .

أما من عبده : فالتوبة والاستغفار والخضوع والذل والانكسار وغير ذلك . وأما من نفسه : فبالغفرة والتوبة على العبد والعفو عنه ، والصفح والحلم والتجاوز عن حقه ، وغير ذلك .

(ومنها) : أن ترك المحظور لا يكون قرينة ما لم يقارنه فعل المأمور ، فلو ترك العبد كل محظور لم يشبه الله عليه حتى يقارنه مأمور الإيمان ، وكذلك المؤمن لا يكون تركه المحظور قرينة حتى يقارنه نية تركه لله . ولا يفتقر فعل المأمور في كونه قرينة وطاعة إلى ترك المحظور ، ولو افتقر إليه لم يقبل الله طاعة من عصاه أبدا .

(ومنها) : أن المأمور الحسنة فيه بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة . والمحظور السيئة فيه بمثلها ، وربما زال أثره بالتوبة أو الاستغفار ، أو الحسنات الماحية ، أو المصائب المكفرة ، أو استغفار الملائكة للمؤمنين ، أو استغفار بعضهم لبعض ، وغير ذلك . وهذا يدل على أن فعل المأمور أحب إلى الله من ترك المحظور .

(ومنها) : أن المنهيات يحوها الله سبحانه بشيء مما تقدم ذكره - هذا في حياة الإنسان ، أو بتشديد الموت وكرهه عند مفارقتها الدنيا ، أو بهول المطلع وروعة الملكين في القبر وضغطته وعصرته له ، أو بشدة الموقف وعنايته وصعوبته ، أو بشفاعة الشافعين ، أو برحمة أرحم الراحمين فإن عجزت عنه هذه الأمور فلا بد له من دخول النار ، ويكون لبثه فيها على قدر بقاء خبثه ودرنه . وأما المأمورات فلا يبطلها إلا الشرك .

(ومنها) : أن جزاء المأمورات الثواب ، وهو من باب الإحسان وفضل والرحمة . وجزاء المنهيات العقوبة وهي من باب الغضب والعدل . ورحمته سبحانه تغلب غضبه .

(ومنها) : أن متعلق المأمورات : الفعل وهو صفة كمال ، ومتعلق النهي : الترك ، والترك عدم ، والعدم ليس بكمال . فترك المنكر لا يكون كمالا إلا إذا ارتبط بفعل المأمور الذي يضاده ، مثال ذلك : لو ترك إنسان السجود للصنم لم يكن كماله في مجرد هذا الترك ما لم يكن يسجد لله ، وإلا فلو ترك السجود لله وللصنم لم يكن ذلك كمالا .

وكذلك لو ترك تكذيب الرسول ومعاداته لم يكن بذلك مؤمناً (بل هو كافر) ما لم يفعل ضد ذلك من التصديق والحب والموالة والطاعة له .

(ومنها) : أن العبد إذا أتى بالمأمور به على وجهه ترك المنهى عنه ولا بد ، فالمنهى عنه في الحقيقة هو تعريض المأمور للإضاعة . أما إذا ترك المنهى عنه فقط فإنه لا يكون قد أدى ما أمر به ، فيحتاج إلى أن يأتي به .

(ومنها) : أن الله سبحانه لم يعلق محبته لعبده إلا بأمر وجودي أمره به ، ولم يعلقها بالترك من حيث هو ترك ولا في موضع واحد ، فإنه سبحانه يحب التوابين ، ويحب المحسنين ، ويحب الشاكرين ، ويحب الصابرين ، ويحب المتطهرين ، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ، ويحب المتقين ويحب الذاكرين ، ويحب المتصدقين . فهو سبحانه إنما علق محبته بأوامره إذ هي المقصود من الخلق والأمر ، كما قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، فما خلق الخلق إلا لقيام أوامره ، وما نهاهم إلا عما يصددهم عن قيام أوامره أو يعوقهم عنها .

(ومنها) : أن المنهيات لو لم تصد عن المأمورات وتمنع وقوعها على الوجه الذي أمر الله بها لم يكن للنهي عنها معنى . وإنما نهى عنها لمضادتها لأوامره وتعويقها وصدّها عنها ، فالنهي عنها من باب التكميل والتممية للمأمور ، فهو بمنزلة تنظيف طرق الماء ليجري في مجاريه غير معوق .

قالوا : وإذا تبين أن فعل المأمور أفضل فالصبر عليه أفضل أنواع الصبر ، وبه يسهل الصبر عن المحذور والصبر على المقدور .

الباب التاسع :

انقسام الصبر إلى محمود ومذموم(*)

الصبر ينقسم إلى قسمين : قسم مذموم وقسم ممدوح .

فالمذموم : الصبر عن الله وعن محبته وسير القلب إليه ، فإن هذا الصبر يتضمن تعطيل كمال العبد بالكلية وتقويت ما خلق له . وهذا كما أنه أقيح الصبر فهو أعظمه وأبلغه ، فإنه لا صبر أبلغ من صبر من يصبر عن محبوبه الذى لا حياة له بدونه البتة ، وفى هذا قيل :

الصبر يحمى في المواطن كلها إلا عليك فإنه لا يحمى

وقيل : « الصبر مع الله وفاء ، والصبر عن الله جفاء » .

وقد أجمع الناس أن الصبر عن المحبوب غير محمود ، فكيف إذا كان كمال العبد وفلاحه في محبته ؟ ولم تزل الأحباب تعيب الخيين بالصبر عنهم كما قيل :

والصبر عنك فمذموم عواقبه والصبر في سائر الأشياء محمود

وأما الصبر المحمود فنوعان : صبر لله ، وصبر بالله ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ [التحل : ١٢٧] وقال راصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴿ [الطور : ٤٨] .

وقد تنازع الناس أى الصبرين أكمل ، فقالت طائفة : الصبر لله أكمل . وقالت طائفة : الصبر بالله أكمل ، بل لا يمكن الصبر له إلا بالصبر به كما قال تعالى :

(*) ينقسم الصبر إلى قسمين : مذموم ، وممدوح . والمذموم هو الصبر عما يقرب الإنسان إلى ربه (سواء كان صبرا عن محبته والتقرب إليه بالطاعة ، أو صبرا على القيام بمعصيته وعدم النزوع منها) .

والصبر المحمود - وهو عكس ذلك - وينقسم إلى نوعين : صبر لله (على أوامره ، واجتناب نواهيه ، والرضا بقضائه) . وصبر بالله (وهو الذى يكون بعون الله ، ويكون بمعيته سبحانه) .

﴿واصبر﴾ فأمره بالصبر ، والمأمور به هو الذى يفعل لأجله ، ثم قال : ﴿وما صبرك إلا بالله﴾ فهذه جملة خبرية غير الجملة الطلبية التى تقدمتها ، أخبر فيها أنه لا يمكنه الصبر إلا به . وذلك يتضمن أمرين : الاستعانة به ، والمعية الخاصة التى فى مثل قوله : « فىي يسمع وى يبصر وى يبطش وى يمشى »^(١) وهى المعية الحاصلة لعبده الذى تقرب إليه بالنوافل حتى صار محبوباً له ، فبه يسمع وبه يبصر ، وكذلك به يصبر . فلا يتحرك ولا يسكن ولا يلرك إلا والله معه ، ومن كان كذلك أمكنه الصبر له وتحمل الأثقال لأجله ومن لم يكن الله معه فلا يستطيع الصبر لأمر الله : امثالاً وتبليغاً وتنفيذاً ، وعلى قدره : احتمالاً له واضطلاًغاً به فلا يطمع فى درجة الصبر المحمود ، كما لا يطمع فى درجة التقرب المحبوب من لم يكن سمعه وبصره وبطشه ومشيه بالله .

والمقصود إنما هو ذكر الصبر بالله ، وأن العبد بحسب نصيبه عن معية الله له يكون صبره ، وإذا كان الله معه أمكن أن يأتى من الصبر بما لا يأتى به غيره ، قال أبو على : « فاز الصابرون بعز الدارين لأنهم نالوا من الله معيته قال تعالى : ﴿إن الله مع الصابرين﴾ [البقرة : ١٥٣] »^(٢) .

(١) قال الشيخ الألبانى فى صحيحته [١٩١/٤] :

قد ذكرها الحافظ - يعنى ابن حجر فى الفتح - فى أثناء شرحه للحديث نقلاً عن الطوفى ولم يعزها لأحد .

(٢) وذكر بعضهم أقساماً أخرى للصبر المحمود ، ولا تخرج عن هذين القسمين عد التحقيق .

الباب العاشر :

الفرق بين صبر الكرام وصبر اللئام

كل أحد لابد له أن يصبر على بعض ما يكره ، إما اختياراً وإما اضطراراً .
فالكريم يصبر اختياراً ؛ لعلمه بحسن عاقبة الصبر ، وأنه يحمد عليه ويذم على الجزع ،
وأنه إن لم يصبر لم يرد الجزع عليه فائتاً ولم ينتزع عنه مكروها ، وأن المقدور لا حيلة في
دفعه ، وما لم يقدر لا حيلة في تحصيله ، فالجزع ضره أقرب من نفعه .

وأما اللئيم : فإنه يصبر اضطراراً ، فإنه يحوم حول ساحة الجزع فلا يراها تجدى
عليه شيئاً ، فيصبر كما يصبر الموثق للضرب .

وأيضاً فالكريم يصبر في طاعة الرحمن ، واللئيم يصبر في طاعة الشيطان . فاللئام
أصير الناس في طاعة أهوائهم وشهواتهم ، وأقل الناس صبراً في طاعة ربهم ، فيصبر على
البذل في طاعة الشيطان أتم صبر ولا يصبر على البذل في طاعة الله في أيسر شيء ، ويصبر
على تحمل المشاق لهُوى نفسه في مرضاة شيطانه ولا يصبر على أدنى المشاق في مرضاة
ربه .

وجملة القول : أن اللئيم لا يصبر على الطاعة ، وهو أصير الناس على المعصية ،
وهذا أعظم اللؤم ، ولا يكون صاحبه كريماً عند الله ، ولا يقوم مع أهل الكرم إذا نودى
بهم يوم القيامة على رؤس الأشهاد .

الباب الحادى عشر :

الأسباب التى تعين على الصبر (*)

لما كان الصبر مأمورا به جعل الله سبحانه له أسبابا تعين عليه وتوصل إليه . والصبر وإن كان شاقا كريها على النفوس فتحصيله ممكن ، وهو يتركب من مفردين : العلم والعمل ، فمنهما تركب جميع الأدوية التى تداوى بها القلوب والأبدان .

فأما الجزء العلمى : فهو إدراك ما فى المأمور من الخير والنفع واللذة والكمال ، وإدراك ما فى المحذور من الشر والضر والنقص فإذا أدرك هذين العلمين كما ينبغى أضاف إليهما العزيمة الصادقة والهمة العالية والنخوة المروءة الإنسانية . وضم إلى هذا الجزء هذا الجزء ، فمتى فعل ذلك حصل له الصبر ، وها نت عليه مشاقه ، وحلت له مرارته ، وانقلب ألمه لذة .

وقد تقدم أن الصبر : مصارعة باعث العقل والدين لباعث الهوى والنفس ، وكل متصارعين أراد أن يتغلب أحدهما على الآخر فالطريق فيه تقوية من أراد أن تكون الغلبة له وإضعاف الآخر ، كالحال مع القوة والمرض سواء .

دواء العشق

فإذا قوى باعث شهوة الوقاع المحرم وغلب بحيث لا يملك معها فرجه ، أو يملكه ولكن لا يملك طرفه ، أو يملكه ولكن لا يملك قلبه بل لا يزال يحدثه بما هناك ويعده ويمنيه ويصرفه عن حقائق الذكر والتفكر فيما ينفعه فى دنياه وآخرفته . فإذا عزم على التداوى ومقاومة هذا الداء فليضعفه أولا بأمور :

(*) أمرنا الله سبحانه بالصبر ، وجعل لنا ما يعيننا على هذا الصبر ، ألا وهو العلم بقائدة المأمور وأضرار المحذور ، ثم بعد ذلك العمل بمقتضى ذلك عن طريق العزيمة الصادقة والهمة العالية . ولقد ضرب لنا ابن القيم - رحمه الله - فى هذا الباب مثلا جيذا جذا ، ألا وهو المرض الذى أهلك كثيرا من الناس وهو مرض العشق ، ثم بين لنا كيف نعالج هذا المرض ، وكيف يكون الصبر فى هذه الحالة .

(أحدها) : أن ينظر إلى مادة قوة الشهوة ، فيجدها من الأغذية المحركة للشهوة ، فيحسم الأمر بتقليلها ، فإن لم تنحسم فليبادر إلى الصوم ، فإنه يضعف مجارى الشهوة ويكسر حدتها ولا سيما إذا كان أكله وقت الفطر معتدلا .

(الثانى) : أن يتجنب محرك الطلب وهو النظر ، فليقصر لجام طرفه ما أمكنه ؛ فإن داعى الإرادة والشهوة إنما يهيج بالنظر ، والنظر يحرك القلب بالشهوة ، وفى المسند عنه عليه السلام : « النظر سهم مسموم من سهام إبليس »^(١) ومن نصب قلبه غرضا فيوشك أن يقتله سهم من تلك السهام المسمومة ، ومن غض بصره فقد وقى قلبه .

(الثالث) : تسلية النفس بالمباح المعوض عن الحرام ، فإن كل ما يشتهي الطبع ففيما أباحه الله سبحانه غنية عنه . وهذا هو الدواء النافع فى حق أكثر الناس ، كما أرشد النبى صلى الله عليه وسلم^(٢) .

(الرابع) : التفكير فى المفاصد الدنيوية المتوقعة من قضاء هذا الوطر . فإنه لو لم يكن جنة ولا نار لكان فى المفاصد الدنيوية ما ينهى عن إجابة هذا الداعى . ولو تكلفنا عدها لفاقت الحصر ، ولكن عين الهوى عمياء^(٣) .

(الخامس) : الفكرة فى مقابح الصورة التى تدعوه نفسه إليها إن كانت معروفة بالإجابة له ولغيره ، فيعز نفسه أن يشرب من حوض ترده الكلاب . كما قيل :

إذا كثرت الذباب على الطعام رفعت يدي ونفسي تشتهي
وتجتنب الأسود ورود ماء إذا كان الكلاب يلغى فيه
ومن له أدنى مروءة ونخوة يأنف لنفسه من مواصلة من هذا شأنه .

(١) أخرجه الحاكم [٣١٤/٣١٣/٤] ، من طريق إسحاق بن عبد الواحد القرشى . ثنا هُشَيْم به . وقال صحيح الإسناد ورده الذهبي بقوله إسحاق واه . وقال الألبانى فى الضعيفة : ضعيف جدًا [١٠٦٥] .

(٢) يشتر إلى حديث النبى صلى الله عليه وسلم : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغص للبصر وأحصن للفرج . ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » وهو حديث صحيح أخرجه أحمد ، والبحارى ومسلم ، والأربعة ، عن ابن مسعود رضى الله عنه . انظر صحيح الجامع برقم (٧٨٥٢) .

(٣) أى أن هوى الإنسان يعميه عن الحقائق مهما كانت واضحة ، وهذا كما قيل : « وعين الرضا عن كل عيب كليله » وكما قيل : « حبك التئى يعمى ويصم » .

فإن لم تجبه نفسه إلى الإعراض ورضى بالمشاركة ، فليُنظر إلى ما وراء هذا اللون والجمال الظاهر من القبايح الباطنة . فإن مكن نفسه من فعل القبايح فنفسه أقبح من نفوس البهائم .

ومن مكنت من نفسها فقد خانت الله ورسوله وأهلها وبعلمها ونفسها وأورثت ذلك لمن بعدها من ذريتها . ولا نسبة لجمال صورتها إلى هذا القبح البتة .
هذه هي أصول إضعاف هذا الداء ، أما تفصيلها فيطول جدا .

تقوية باعث الدين

وأما تقوية باعث الدين فإنه يكون بأمور :

(أحدها) : إجلال الله تبارك وتعالى أن يُعصى وهو يرى ويسمع ، ومن قام بقلبه مشهد إجلاله لم يطاوعه قلبه لذلك البتة .

(الثاني) : مشهد محبته سبحانه فيترك معصيته محبة له ، فإن الحب لمن يحب مطيع ، وأفضل الترك ترك المحبين ، كما أن أفضل الطاعة طاعتهم . فين ترك الحب وطاعته وترك من يخاف العذاب وطاعته بون بعيد .

(الثالث) : مشهد النعمة والإحسان . فيمنعه مشهد إحسان الله تعالى ونعمته عن معصيته ، حياءً منه أن يكون خير الله وإنعامه نازلاً إليه ، ومخالفاته ومعاصيه وقبايح صاعدة إلى ربه ، فملك ينزل بهذا وملك يعرج بذاك ، فأقبح بها من مقابلة .

(الرابع) : مشهد الغضب والانتقام . فإن الرب تعالى إذا تمادى العبد في معصيته غضب ، وإذا غضب لم يقم لغضبه شيء .

(الخامس) : مشهد الفوات ، وهو ما يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة . ويكفى في هذا المشهد مشهد فوات الإيمان الذي أدنى متقال ذره منه خير من الدنيا وما فيها أضعافاً مضاعفة ، فكيف أن يبيعه بشهوة تذهب لنتها وتبقى تبعثها ، تذهب الشهوة وتبقى الشقوة . وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو

مؤمن^(١) قال بعض الصحابة : ينزع منه الإيمان حتى يبقى على رأسه مثل الظلة فإن تاب
رجع إليه . وقال بعض التابعين : ينزع عنه الإيمان كما ينزع القميص ، فإن تاب لبسه .

(السادس) : مشهد القهر والظفر . فإن قهر الشهوة والظفر بالشيطان له
حلاوة ومسرة وفرحة عند من ذاق ذلك أعظم من الظفر بعدوه من الآدميين وأحلى
موقعا وأتم فرحة . وأما عاقبته فأحمد عاقبة وهي كعاقبة شرب الدواء النافع الذي أزال
داء الجسد وأعاده إلى صحته واعتداله .

(السابع) : مشهد العوض . وهو ما وعد الله سبحانه من تعويض من ترك
المحارم لأجله ونهى نفسه عن هواها . وليوازن العبد بين الغرض والمعوّض عنه فأيهما
كان أولى بالإيثار اختاره وارتضاه لنفسه .

(الثامن) : مشهد المعية ، وهو نوعان : معية عامة ، ومعية خاصة فالعامة :
اطلاع الرب عليه وكونه بعينه ، لا تخفى عليه حاله .

والمقصود هنا : المعية الخاصة كقوله : ﴿ إِنْ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة :
١٥٣] وقوله : ﴿ إِنْ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨]
وقوله : ﴿ وَإِنْ اللَّهَ مَعَ الْإِحْسَانِ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

فهذه المعية الخاصة خير وأنفع للعبد - في دنياه وآخرته - من قضاء وطره ونيل
شهوته على التمام من أول عمره إلى آخره ، فكيف يؤثر عليها لذة منغصة منكدة في مدة
يسيرة من العمر ؟ وما هي إلا كأحلام نائم أو كظلم زائل .

(التاسع) : مشهد المباغلة والمعالجة ، وهو أن يخاف أن يباغته الأجل فيأخذه
على غرة ، فيحال بينه وبين ما يشتهي من لذات الآخرة ، فيألها من حسرة ما أمرها وما
أصحبها !! لكن لا يعرفها إلا من جربها . وفي بعض الكتب القديمة : « يا من لا يأمن
على نفسه طرفة عين ولا يتم له سرور يوم : الحذر الحذر » .

(١) أخرجه البخارى [٣٠/١٠] ، ومسلم [٧٦/١] ، والنسائى [٦٤/٨] ، وابن ماجه [٣٩٣٦] ، وأحمد
[٣٧٦/٢] ، والحميدى [٤٧٨/٢] ، وابن مندة فى الإيمان [٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢] ، والبيهقى
[١٨٦/١٠] ، والبخارى [٨٨/١] ، وابن حبان [٢٠٥/١] ، [٣٠٦/٧] ، من حديث أبى هريرة رضى
الله عنه .

(العاشر) : مشهد البلاء والعافية . فإن البلاء في الحقيقة ليس إلا الذنوب وعواقبها ، والعافية المطلقة هي الطاعات وعواقبها . فأهل البلاء هم أهل المعصية وإن عوفيت أبدانهم ، وأهل العافية هم أهل الطاعة وإن مرضت أبدانهم .

(الحادى عشر) : أن يعود باعث الدين ودواعيه مصارعة داعى الهوى ومقاومته على التدرىج قليلاً قليلاً حتى يدرك لذة الظفر ، فتقوى حينئذ همته في تحصيله . ومن ترك المجاهدة بالكلية ضعف فيه باعث الدين وقوى فيه باعث الشهوة . ومتى عود نفسه مخالفة الهوى غلبه متى أراد .

(الثانى عشر) : كف الباطل من حديث النفس ، وإذا مرت به الخواطر نفاها ولا يؤوبها حتى لا تصير أمانى . ومتى ساكنها صارت أمانى ، ثم تقوى فتصير هموماً ، ثم تقوى فتصير إرادات ، ثم تقوى فتصير عزماً يقترن به المراد . فدفع الخاطر الأول أسهل وأيسر من دفع ما يليه .

(الثالث عشر) : قطع العلائق والأسباب التى تدعوه إلى موافقة الهوى . وليس المراد أن لا يكون له هوى ، بل المراد أن يصرف هواه إلى ما ينفعه ، ويستعمله في تنفيذ مراد الرب تعالى ، فإن ذلك يدفع عنه شر استعماله في معاصيه ، فإن كل شيء من الإنسان يستعمله الله فإن الله يقيه شر استعماله لنفسه وللشيطان ، وما لا يستعمله الله استعماله لنفسه وهواه ولا بد .

فمن عود نفسه العمل لله لم يكن عليه أشق من العمل لغيره ، ومن عود نفسه العمل لهواه وحظه لم يكن عليه أشق من الإخلاص والعمل لله . وهذا في جميع أبواب الأعمال ، فليس شيء أشق على المنفق لله من الإنفاق لغيره وكذا بالعكس .

(الرابع عشر) : صرف الفكر إلى عجائب آيات الله التى ندب عباده إلى التفكير فيها ، وهى آياته المتلوة وآياته المجلوة ، فإذا استولى ذلك على قلبه دفع عنه وسواس الشيطان ومحادثته .

(الخامس عشر) : التفكير في الدنيا وسرعة زوالها وقرب انقضائها ، فلا يرضى لنفسه أن يتزود منها إلى دار بقاءه وخلوده أحسن ما فيها وأقله نفعاً إلا ساقط الهمة دنىء

المروءة ميت القلب . فما أشد حسرتة إذا ترك ما ينفعه إلى زاد يعذب به ويناله بسببه غاية الألم .

(السادس عشر) : تعرضه على الدوام إلى من القلوب بين إصبعيه وأزمة الأمور يديه وانتهاء كل شيء إليه ، فلعله أن يصادف أوقات النفحات كما في الأثر المعروف : « إن لله في أيام دهركم نفحات فتعرضوا لنفحاته واسألوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم »^(١) . ولعله من كثرة تعرضه أن يصادف ساعة من الساعات التي لا يسأل الله فيها شيئاً إلا أعطاه . فإنه لو لم يرد إجابته لما ألهمه الدعاء ، كما قيل :

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبه من جود كفك ما عودتنى الطلبا

والله سبحانه يعامل عبده معاملة من ليس كمثله شيء في أفعاله ولا في صفاته ، فإنه ما حرمة إلا يعطيه ، ولا أمرضه إلا ليشفيه ، ولا أفقره إلا ليغنيه ، ولا أماته إلا ليحييه ، وما أخرج أبويه من الجنة إلا ليعيدهما إليها على أكمل حال ، كما قيل : يا آدم لا تجزع من قولي لك اخرج فلك خلقتها وسأعيدك إليها .

(السابع عشر) : أن يعلم العبد بأن فيه جاذبين متضادين ، ومحنته بين الجاذبين . جاذب يجذب به إلى الرفيق الأعلى من أعلى عليين ، وجاذب يجذب به إلى أسفل سافلين . فكلما انقاد مع الجاذب الأعلى صعد درجة حتى ينتهي إلى حيث يليق به من المحل الأعلى ، وكلما أنقاد إلى الجاذب الأسفل نزل درجة حتى ينتهي إلى موضعه من سجين .

والمرء مع من أحب ، وكل مهتم بشيء فهو منجذب إليه وإلى أهله ، وكل أمرىء يصبو إلى ما يناسبه ، وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾ [الإسراء : ٨٤] فالنفوس العلوية تنجذب بذاتها وهما وأعمالها إلى أعلى ، والنفوس السفالة إلى أسفل .

(١) قال العراق في تعليقه على الإحياء [١٨٦/١] : رواه الحكيم في التوادر والطبراني في الأوسط من حديث محمد بن سبعة . وابن عبد البر في التمهيد نحوه في حديث أنس ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الفرج من حديث أبي هريرة . احتج في إسناده .

(الثامن عشر) : أن يعلم العبد أن تفرغ المحل^(١) شرط لنزول غيث الرحمة ، وتنقية من الدغل^(٢) شرط لكمال الزرع . فمتى لم يفرغ المحل لم يصادف غيث الرحمة .
قابلا ينزل فيه ، وإن فرغه حتى أصابه غيث ولكنه لم ينقه من الدغل لم يكن الزرع زرعاً كاملاً ، بل ربما غلب الدغل على الزرع فكان الحكم له . وهذا كالذي يصلح أرضه ويهيئها لقبول الزرع ويودع فيها البذور وينتظر نزول الغيث .

فإذا طهر العبد قلبه وفرغه من إرادات السوء وخواطره ، وبذر فيه بذر الذكر والفكر والمحبة والإخلاص ، وعرضه لمهاب رياح الرحمة ، وانتظر نزول غيث الرحمة في أوانه كان جديراً بحصول البقل^(٣) .

وكما يقوى الرجاء لنزول الغيث في وقته ، كذلك يقوى الرجاء لإصابة نفحات الرحمن جل جلاله في الأوقات الفاضلة والأحوال الشريفة ، ولا سيما إذا اجتمعت المهم وتساعدت القلوب وعظم الجمع كجمع عرفة وجمع الاستسقاء وجمع أهل الجمعة ، فإن اجتماع المهم والأنفاس أسباب نصيبها الله تعالى مقتضية لحصول الخير ونزول الرحمة ، كما نصب سائر الأسباب مقتضية إلى مسبباتها ، بل هذه الأسباب في حصول الرحمة أقوى من الأسباب الحسية في حصول مسبباتها ، ولكن العبد بجعله يغلب عليه الشاهد على الغائب ، وبظلمه يؤثر ما يحكم به هذا ويقتضيه على ما يحكم به الآخر ويقتضيه .

ولو فرغ العبد المحل وهياه وأصلحه لرأى العجائب ، فإن فضل الله لا يردّه إلا المانع الذي في العبد ، فلو زال ذلك المانع لسارع إليه الفضل من كل صوب . فتأمل حال نهر عظيم يسقى كل أرض يمر عليها فحصل بينه وبين الأرض المعطشة المجذبة سد كثيف ، فصاحبها يشكو الحذب ، والنهر إلى جانب أرضه .

(التاسع عشر) : أن يعلم العبد أن الله سبحانه خلقه لبقاء لا فناء له ، ولعز لا ذل معه ، وأمن لا خوف فيه ، وغناء لا فقر معه ، ولذة لا ألم معها ، وكمال لا نقص

(١) المراد تفرغ القلب مما سوى الله ، من الأهواء والشهوات وما إليها .

(٢) الدغل : الفساد .

(٣) البقل : هو أول النبات . أو ما لا ساق له من النبات . وفي طبعة دار التراث أثبتتها « المقل » وفي طبعة مكتبة المتنبى « المقل » . ولعل ما أثبتته هو الصواب .

فيه . وامتحنته في هذه الدار بالبقاء الذى يسرع إليه الفناء ، والعز الذى يقارنه الذل ويعقبه الذل ، والأمن الذى معه الخوف وبعده الخوف ، وكذلك الهناء واللذة والفرح والسرور والنعيم الذى هنا مشوب بضده ، لأنه يتعقبه ضده ، وهو سريع الزوال . فغلط أكثر الخلق في هذا المقام إذ طلبوا النعيم والبقاء والعز والملك والجاه في غير محله ، فقَاتهم في محله . والبصير الموفق من يجتاز بنظره من الأوائل إلى الأواخر ، ومن المبادئ إلى العواقب وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

(العشرون) : أن لا يغتر العبد باعتقاده أن مجرد العلم بما ذكرنا كافٍ في حصول المقصود ، بل لابد أن يضيف إليه بذلك الجهد في استعماله ، واستفراغ الوسع والطاقة فيه . وملاك ذلك الخروج عن العوائد^(١) فإنها أعداء الكمال والفلاح ، فلا أفلح من استمر مع عوائده أبداً . ويستعين على الخروج عن العوائد بالحرب من مظان الفتنة والبعد عنها ما أمكنه ، وقد قال النبي ﷺ : « ومن سمع بالدجال فليأمن عنه »^(٢) ، فما استُعين على التخلص من الشر بمثل البعد عن أسبابه ومظانه .

وها هنا لطيفة للشيطان لا يتخلص منها إلا حاذق ، وهى أن يظهر له في مظان الشر بعض شيء من الخير ويدعوه إلى تحصيله ، فإذا قرب منه ألقاه في الشبكة^(٣) ، والله أعلم .

(١) أى عدم التقيد بالعادات والموروثات . بل الثورة على كل ما ليس له أصل يعضده في الدين .

(٢) أخرجه أبو داود [٤٣١٩] ، وأحمد [٤٣١/٤] ، والحاكم [٥٣١/٤] من حديث عمران بن حصين . وصححه الألبانى في صحيح الجامع برقم [٦٣٠١] .

(٣) وقصة عابد بنى إسرائيل - الذى أوقعه الشيطان في الزنا ، ثم في القتل ثم في الشرك - قصة مشهورة وهى مذكورة في الأحاديث الصحيحة . وقد كان الشيطان زين له بلباية ذلك بالإحسان إلى المرأة والتخفيف عن نفسها ، حتى أوقعه فيما أوقعه فيه .

الباب الثاني عشر :

أهمية الصبر للإنسان في جميع أحواله(*)

الإنسان يتقلب دائما بين : أمر يجب عليه امتثاله وتنفيذه ، ونهى يجب عليه اجتنابه وتركه ، وقدر يجري عليه اتفاقا ، ونعمة يجب عليه شكر المنعم عليها . وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه فالصبر لازم له إلى الممات .

وكل ما يلقي العبد في هذه الدار لا يخلو من نوعين : أحدهما يوافق هواه ومراده ، والآخر يخالفه . وهو محتاج إلى الصبر في كل منهما .

أما النوع الموافق لغرضه فكالصحة والسلامة والجاه والمال وأنواع الملاذ المباحة ، وهو أحوج شيء إلى الصبر فيها من وجوه :

(أحدها) : أن لا يركن إليها ولا يغتر بها ولا تحمله على البطر والأشر والفرح المذموم الذي لا يحب الله أهله .

(الثاني) : أن لا ينهمك في نيلها ويبالغ في استقصائها ، فإنها تنقلب إلى أضدادها . فمن بالغ في الأكل والشرب والجماع انقلب ذلك إلى ضده ، وحُرم الأكل والشرب والجماع .

(الثالث) : أن يصبر على أداء حق الله فيها ولا يضيعه فُيُسَلِّها .

(الرابع) : أن يصبر عن صرفها في الحرام . فلا يمكن نفسه من كل ما تريده فإنها توقعه في الحرام ، فإن احترز كل الاحتراز أوقعته في المكروه .

(*) الإنسان محتاج دائما إلى الصبر في جميع أحواله ؛ في حال الطاعة حتى يوفيهما جميع مقاماتها ، وفي حال المباحات حتى لا يتعدى فيها ولا يجعلها كل هم ، وأشد الصبر هو الصبر عن الهوى والشهوات ، وكذلك يحتاج العبد إلى الصبر على قدر الله والرضا به ، كما يحتاج إلى الصبر على مرارة معالجة النفس من البلاء (الذنب) الذي تمكن منها . فالصبر لازم للعبد إلى الممات .

مرارة الصبر على ما يوافق الهوى

قال بعض السلف : « البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر ، ولا يصبر على العافية إلا الصديقون » . وقال عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : « ابتلينا بالضرأ فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر » .

ولذلك حذر الله عباده من فتنه المال والأزواج والأولاد فقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾ [المنافقون : ٩] وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾ [التغابن : ١٤] وليس المراد من هذه العداوة عداوة البغضاء والحادة ، بل إنما هي عداوة المحبة الصادقة للآباء عن الهجرة والجهاد وتعلم العلم والصدقة وغير ذلك من أمور الدين وأعمال البر ، كما في جامع الترمذى من حديث ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾ قال : « هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة فأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله ﷺ ، فلما أتوا رسول الله ورأوا الناس قد فقهوا في الدين هموا أن يعاقبهم فأنزل الله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم ﴾ الآية (١) .

قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده ، وفي الحديث : « الولد مبخله مجبنة » (٢) .

وإنما كان الصبر على السراء شديدا لأنه مقرون بالقدره . والجائع عند غيبة الطعام أقلر منه على الصبر عند حضوره ، وكذلك الشبق (٣) عند غيبة المرأة أصبر منه عند حضورها .

(١) أخرجه الترمذى [٣٣١٣] ، وحسنه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى رقم [٢٦٤٢] .

(٢) أخرجه البزار [١٨٩٢] من حديث أبى سعيد بلفظ [الولد غمرة القلب وإنه مجبنة مبخله ، محزنة] ، وصححه الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع رقم [٧١٦٠] .

(٣) اشبق : هو من اشتدت شهوته إلى الجماع .

الصبر على ما يخالف الهوى

وهذا النوع لا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد : كالطاعات والمعاصي ، أو لا يرتبط أوله باختياره : كالمصائب ، أو يرتبط أوله باختياره ولكن لا اختيار له في إزالته بعد الدخول فيه . فهذه ثلاثة أقسام .

(أ) ما يرتبط باختيار العبد : وهو جميع أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية . فأما الطاعة فالعبد محتاج إلى الصبر عليها ، لأن النفس بطبعها تنفر عن كثير من العبودية .

أما في الصلاة فلما في طبعها من الكسل وإثارة الراحة ، ولا سيما إذا اتفق مع ذلك قسوة القلب ورين الذنب والميل إلى الشهوات ومخالطة أهل الغفلة . فلا يكاد العبد مع هذه الأمور وغيرها أن يفعلها ، وإن فعلها مع ذلك كان متكلفا ، غائب القلب . ذاهلا عنها ، طالبا لفراقها كالجالس إلى الجيفة .

وأما الزكاة فلما في النفس من الشح والبخل . وكذلك الحج والجهاد للأمرين جميعا .

ويحتاج العبد هنا إلى الصبر في ثلاثة أحوال :

أحدها : قبل الشروع في الطاعة : بتصحيح النية ، والإخلاص ، وتجنب دواعي الرياء والسمعة ، وعقد العزم على توفية الطاعة حقها .

الثانية : الصبر حال العمل : فيلازم العبد الصبر عن دواعي التقصير فيه والتفريط ، ويلزم الصبر على مصاحبة ذكر النية ، وعلى حضور القلب بين يدي المعبود ، وأن لا ينساه في أمره ، فليس الشأن في فعل المأمور بل الشأن كل الشأن أن لا ينسى الأمر حال الإتيان بأمره . فهذه عبادة العبيد المخلصين لله .

فهو محتاج إلى الصبر على توفية العبادة حقها بالقيام بأدائها وأركانها وواجباتها وسننها ، وإلى الصبر على مصاحبة ذكر المعبود فيها ، ولا يشتغل عنه بعبادته ، فالقلب يكون حاضرا مع الله والجوارح قائمة بعبوديته .

الثالثة : الصبر بعد الفراغ من العمل . وذلك من وجوه :

الأول : أن يصبر نفسه عن الإتيان بما يبطل عمله . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأُذَى ﴾ [البقرة : ٢٦٤] ، فليس الشأن الإتيان بالطاعة ، إنما الشأن في حفظها مما يبطلها .

الثاني : أن يصبر عن رؤيتها والعجب بها والتكبر والتعظم بها ، فإن هذا أضر عليه من كثير من المعاصي .

الثالث : أن يصبر عن نقلها من السر إلى العلانية ، فإن العبد يعمل العمل سراً بينه وبين الله سبحانه فيكتب في ديوان السر ، فإن تحدث به نُقل إلى ديوان العلانية .

كيفية الصبر عن المعصية

وأما الصبر عن المعاصي فأمره ظاهر ، وأعظم ما يعين عليه قطع المألوفات ، ومفارقة الأعوان عليها في المجالسة والمحادثة ، وقطع العوائد^(١) فإن العادة طبيعة خاصة ، فإذا انضافت الشهوة إلى العادة تظاهر جندان من جند الشيطان فلا يقوى باعث الدين على قهرهما .

(ب) الصبر على ما لا يرتبط باختيار العبد : وهو ما ليس للعبد حيلة فيه دفعه ، كالمصائب التي لا صنع للعبد فيها ، كموت من يعز وسرقة ماله ومرضه ونحو ذلك ، وهذا نوعان : أحدهما : ما لا صنع للعبد الآدمي فيه ، والثاني : ما أصابه من جهة آدمي مثله ، كالسب والضرب وغيرهما .

فالنوع الأول للعبد فيه أربع مقامات :

الأول : مقام العجز وهو مقام الجزع والشكوى والسخط ، وهذا لا يفعله إلا أقل الناس عقلاً وديناً ومروءة . وهو مصيبة أعظم من المصيبة التي يشكو منها الإنسان ويسخط .

(١) جمع عادة .

- الثاني : مقام الصبر ، إما لله وإما للمروءة الإنسانية .
 الثالث : مقام الرضا ، وهو أعلى من مقام الصبر .
 الرابع : مقام الشكر ، وهو أعلى من مقام الرضا . فإن العبد يشهد البلية نعمة فيشكر عليها .

الصبر على أذى الناس

- وللعبد فيه هذه المقامات الأربعة ، ويضاف إليه أربعة آخر :
 أحدها : مقام العفو والصفح .
 الثاني : مقام سلامة القلب من إرادة التشفى والانتقام ، وفراغه من ألم مطالعة الجناية كل وقت وضيقه بها .
 الثالث : مقام شهود القدر . وأنه وإن كان العبد ظالماً بإيصال هذا الأذى إليك فالذى قدره عليك وأجزاه على يد هذا الظالم ليس بظالم . وأذى الناس مثل الحر والبرد لا حيلة في دفعه ، فالتسخط من أذى الحر والبرد غير حازم ، والكل جاري بالقدر وإن اختلفت طرقه وأسبابه .
 الرابع : مقام الإحسان إلى المسيء ومقابلة إساءته بإحسانك . وفي هذا المقام من الفوائد ما لا يعلمه إلا الله ، فإن فات العبد هذا المقام العالى فلا يرضى لنفسه بأخس المقامات وأسفلها .
 (ح) ما يكون وروده باختيار العبد ، فإذا تمكن منه لم يكن له اختيار ولا حيلة في دفعه : وهذا كالعشق أوله اختيار وآخره اضطرار ، وكالتعرض لأسباب الأمراض والآلام التى لا حيلة في دفعها بعد مباشرة أسبابها ، كما لا حيلة في دفع السكر بعد تناول المسكر . فهذا كان فرضه الصبر عنه في أوله ، فلما غاته بقى فرضه الصبر عليه في آخره ، وأن لا يطيع داعي هواه ونفسه .

تلاعب الشيطان بأصحاب العشق والبلاء

وللشيطان ما هنا دسيسة عجيبة ، وهى أن يخيل إليه أن نيل بعض ما مُنع قد يتعين عليه أو يباح له على سبيل التداوى ، وغايته أن يكون كالتداوى بالخمر والنجاسة وقد أجازته كثير من الفقهاء .

وهذا من أعظم الجهل ، فإن هذا التداوى لا يزيل الداء بل يزيده ويقويه . وكم ممن تداوى بذلك فكان هلاك دينه ودنياه فى هذا الدواء ، بل الدواء النافع لهذا الباء هو الصبر والتقوى كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [آل عمران : ١٨٦] ، وقال : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٩٠] . فالصبر والتقوى دواء كل داء من أدواء الدين ، ولا يستغنى أحدهما عن صاحبه .

هل يثاب المبتلى فى صبره على التخلص من بلواه ؟

فإن قيل : فهل يثاب على الصبر فى هذا القسم إذا كان عاصيا مفرطا يتعاطى أسبابه ؟ وهل يكون معاقبا على ما تولد منه وهو غير اختياري له ؟

قيل : نعم ، إذا صبر لله تعالى ، وندم على ما تعاطاه من السبب المحظور أثيب على صبره ، لأنه جهاد منه لنفسه ، وهو عمل صالح ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

وأما عقوبته على ما تولد منه ، فإنه يستحق العقوبة ، كما يعاقب السكران على ما جنه فى حال سكره . فإن الله سبحانه يعاقب على الأسباب المحرمة وعلى ما تولد منها ، كما يثيب على الأسباب المأمور بها وعلى ما يتولد منها . ولذا كان من دعا إلى بدعة وضلالة فعليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه ، لأن اتباعهم تولد عن فعله .

فإن قيل : فكيف التوبة من هذا المتولد وليس من فعله ولا اختياره ؟ قيل : التوبة منه بالندم عليه ، وعدم إجابة دواعيه وموجباته ، وحبس النفس عن ذلك . فإن كان المتولد متعلقا بالغير فتوبته مع ذلك برفعه عن الغير بحسب الإمكان ، ولهذا كان من توبة الداعى إلى البدعة أن يبين أن ما كان يدعو إليه بدعة وضلالة ، وأن الهدى فى غيره .

الباب الثالث عشر :

أشق الصبر على النفوس (*)

إن صبر العبد عن الفعل يشق : إذا كان الداعي لهذا الفعل قويا ، وكان الفعل - في ذاته - يسيراً على العبد . فإذا اجتمع في الفعل هذان الأمران كان الصبر عنه أشق شيء على الصابر ، وإن فقدنا معاً سهل الصبر عنه ، وإن وجد أحدهما وفقد الآخر سهل الصبر من وجه وصعب من وجه .

فمن لا داعي له إلى القتل والسرقة وشرب المسكر وأنواع الفواحش ، ولا هو سهل عليه فصبره من أيسر شيء وأسهله . ومن اشتد داعيه إلى ذلك وسهل عليه فعله فصبره عنه أشق شيء عليه . ولهذا كان صبر السلطان عن الظلم - وصبر الشاب عن الفاحشة ، وصبر الغنى عن تناول اللذات والشهوات - عند الله بمكان .

وفي المسند وغيره عن النبي ﷺ : « عجب ربك من شاب ليست له صبوة »^(١) والمذكورين في الحديث بأن الله العظيم يظلمهم في ظل عرشه استحقوا ذلك لكمال صبرهم ومشقته . فإن صبر الإمام ذى السلطان على العدل في قسمه^(٢) وحكمه ورضاه وغضبه ، وصبر الشاب على عبادة الله ومخالفة هواه ، وصبر الرجل على ملازمة المسجد ، وصبر المتصدق على إخفاء الصدقة حتى عن بعضه ، وصبر المدعو إلى الفاحشة مع كمال جمال الداعي ومنصبه ، وصبر المتحائين في الله على ذلك في حال اجتماعهما واقتراحهما ، وصبر الباكي من حشية الله على كتمان ذلك وعدم إظهاره للناس ، كل ذلك من أشد الصبر وأشقاه .

(*) إن الصبر عن المعصية من أشق الصبر على النفوس ، ولا سيما إذا اجتمع معها تيسر فعلها وقوة الداعي إليها ، فحينئذ يشق الصبر على النفوس حتى يبلغ أشده ، والمعصوم من عصمه الله ، فمن استطاع أن يصبر مع كل ذلك فله أجر عظيم ، كما أن من فعل هذه المعاصي بلون وجود داعيها فله إثم عظيم .

(١) أخرجه أحمد [١٥١/٤] ، والطبراني [٣٠٩/١٧] من حديث عقبة بن عامر . وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم ١٦٥٨ .

(٢) أى قسمته .

ولهذا كانت عقوبة الشيخ الزاني والملك الكذاب والفقير المختال أشد العقوبة لسهولة الصبر عن هذه الأشياء المحرمات عليهم ؛ لضعف دواعيها في حقهم ، فكان تركهم الصبر عنها مع سهولته دليلاً على تمردهم على الله وعتوهم عليه .

ولهذا كان الصبر عن معاصي اللسان والفرج من أصعب أنواع الصبر لشدة الداعي إليهما وسهولتهما . فإن معاصي اللسان فاكهة الإنسان كالثمينة والغيبة والكذب والمراء ، والثناء على النفس تعريضا وتصريحا ، وحكاية كلام الناس ، والطعن على من ييغضه ، ومدح من يجه ونحو ذلك . فتتفق قوة الداعي وتيسر حركة اللسان فيضعف الصبر ، ولهذا قال عليه السلام لمعاذ : « أمسك عليك لسانك » فقال : وأنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : « وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم !؟ »^(١) .

هذا ، وإذا صارت المعاصي اللسانية معتادة للعبد فإنه يعز عليه الصبر عنها ، ولهذا تجد الرجل يقوم الليل ويصوم النهار ويتورع من استتادة إلى وسادة حرير لحظة واحدة ، ويطلق لسانه في الغيبة والتميمة والتفكه في أعراض الخلق .

وكثير ممن تجده يتورع عن الدقائق من الحرام ، والقطرة من الخمر ، ومثل رأس الدبوس من النجاسة لا يبالي بارتكاب الفاحشة .

والمقصود أن اختلاف شدة الصبر في أنواع المعاصي وآحادها يكون باختلاف الداعي إلى تلك المعصية قوة وضعفا .

ويذكر عن علي رضي الله عنه أنه قال : « الصبر ثلاثة : فصبر على المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية . فمن صبر على المصيبة حتى يردّها بحسن عزائها

(١) أخرجه الترمذی [٢٦١٦] ، وابن ماجه [٣٩٧٣] ، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه .

وصححه الألبانی رحمته الله سنن الترمذی [٢٧٦٢] ، وابن ماجه [٣٩٧٣] ، .

كتب الله له ثلاثمائة درجة ، ومن صبر على الطاعة حتى يؤديها كما أمر الله كتب الله له ستمائة درجة ، ومن صبر عن المعصية خوفاً من الله ورجاء ما عنده كتب الله له تسعمائة درجة «^(١) .

(١) لم أجده موقوفاً .

قال الزبيدي في إتحاف السادة المتقين [٢٥/٩] : روى مرفوعاً من حديث علي رضي الله عنه رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الصبر » وأبو الشيخ في كتاب الثواب والديلمي في مسند الفردوس كلهم من طريق عبد الله بن محمد بن زبير عن عمر بن علي عن عمر بن يونس الجبلي عن مذك عن محمد السلومي عن رجل يقال له عبي عن علي رضي الله عنه رفعه . أ. هـ . وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف الجامع رقم [٣٥٣٤] .

الباب الرابع عشر :

ذكر ما ورد في الصبر من نصوص السنة

سبق أن ذكرنا أن الصبر ورد في القرآن في تسعين موضعا ، أما في السنة فقد وردت أحاديث كثيرة تبين معناه ، وفضيلته ، وغير ذلك مما يتصل بالصبر ، فسنذكر بعضها ، وما فيها من فوائد .

عن أنس هريرة رضى الله عنه قال : « مر النبي ﷺ على امرأة جاثمة على قبر تبكى ، فقال لها : يا أمة الله اتقى الله واصبرى ، قالت : يا عبد الله ثكلى . قال : يا أمة الله واتقى الله واصبرى ، وقالت : يا عبد الله لو كنت مصابا عذرتنى . قال : يا أمة الله اتقى الله واصبرى . قالت : يا عبد الله قد أسمع ، فانصرف عني . فمضى رسول الله ﷺ ، واتبعه رجل من أصحابه ، فوقف على المرأة فقال لها : ما قال لك الرجل الذهاب ؟ قالت : قال لي كذا وكذا وأجبت به كذا . قال : هل تعرفينه ؟ قالت : لا . قال : ذلك رسول الله ﷺ . قال : فوثبت مسرعة نحوه حتى انتهت إليه وهى تقول : أنا أصبر أنا أصبر يا رسول الله ، فقال : « الصبر عند الصدمة الأولى ، الصبر عند الصدمة الأولى » (١) .

قال أبو عبيد : معناه أن كل ذى رزية فإن قصاراه الصبر ، ولكنه إنما يحمد على صبره عند حدة المصيبة وحرارتها .

قلت : وفي الحديث أنواع من العلم :

(احدها) : وجوب الصبر على المصائب ، وأنه من التقوى التى أمر العبد بها .

(الثانى) : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن سكر المصيبة وشدها لا يسقطه عن الأمر النهى .

(الثالث) : تكرار الأمر والنهى مرة بعد مرة ، حتى يُعْلِم المرء إلى ربه .

(١) أخرجه أبو يعلى [٤٥٣/١٠] ، من حديث أنس هريرة رضى الله عنه وقال محققه إسناده ضعيف .

(الرابع) : احتج به على جواز زيارة النساء للقبور ، فإنه ﷺ لم ينكر عليها الزيارة وإنما أمرها بالصبر ، ولو كانت الزيارة حراما لبين لها حكمها ، وهذا كان في آخر الأمر فإن أبا هريرة إنما أسلم بعد السنة السابعة .

وأجيب على هذا بأنه ﷺ قد أمرها بتقوى الله والصبر ، وهذا إنكار منه لحالها من الزيارة والبكاء . ويدل عليه أنها لما علمت أن الأمر لها من تجب طاعته انصرفت مسرعة . وأيضا : فأبو هريرة لم يخبر أنه شهد هذه القصة فلا يدل الحديث على أنها بعد إسلامه . ولو شهدها فلعلته ﷺ لزارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج كان بعد هذا في مرض موته .

وفي عدم تعريفه لها بنفسه - في تلك الحال التي لا تملك فيها نفسها - شفقة منه ورحمة بها إذا عرفها بنفسه في تلك الحال ، فربما لم تسمع منه فتهلك ، وكان معصيتها له . هي لا تعلم أنه رسول الله أخف من معصيتها له لو علمت به . فهذا من كمال رأفته صلوات الله وسلامه عليه .

وفي صحيح مسلم عن أم سلمة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله : إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتى واخلف لي خيرا منها إلا أخلف الله له خيرا منها » قالت : فلما مات أبو سلمة قلت أى المسلمين خير من أى سلمة ؟! أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ ، ثم إنى قلتها فأخلف الله لي رسوله ، فأرسل إلى رسول الله ﷺ حاطب بن أبى بلتعة يخطبني له ، فقلت : إن لي بنتا وأنا غيور ، فقال : « أما بنتها فأدعو الله أن يغنيها عنها ، وأدعو الله أن يذهب بالغيرة » فتزوجت رسول الله ﷺ (١) .

فانظر عاقبة الصبر والاسترجاع ومتابعة الرسول والرضا عن الله إلى ما آلت إليه وأنالت أم سلمة نكاح أكرم خلق على الله .

وعن أبى موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ولد العبد قال الله للملائكة : قبضتم ولد عبدي ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده ؟

(١) أخرجه مسلم [٦٣١/٢ / عبد الباقي] ، والبيهقي [٦٥/٤] ، والبخارى [٢٩٤/٥] من حديث أم سلمة رضي الله عنها .

فيقولون : نعم . فيقول : ماذا قال عبدى ؟ فيقولون : حمدك واسترجعك . فيقول :
ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد»^(١) .

وفى صحيح البخارى من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إذا ابتليت
عبدى بحبيبته ثم صبر عوضته منهما الجنة »^(٢) يريد : عينيه .

وفيه من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله عز وجل :
ما لعبدى جزاء إذا قبضت صَفِيَّةٌ من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة »^(٣) .

وفى صحيحه أيضا عن عطاء بن أبى رباح قال : قال لى ابن عباس : « ألا أريك
أمرأة من أهل الجنة ؟ قلت : بلى . قال : هذه المرأة السوداء أتت النبى ﷺ فقالت :
« يا رسول الله إنى أصرع وإنى أتكشف فادع الله لى ، قال : إن شئت صبرت ولك الجنة
وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك . فقالت : أصبر ، فقالت : إنى أتكشف فادع الله
أن لا أتكشف ، فدعا لها »^(٤) .

وفى الموطأ من حديث عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : « إذا مرض العبد
بعث الله إليه ملكين ، فقال : انظرا^(٥) ماذا يقول لعواده . فإن هو إذا جاؤه حمد الله
وأثنى عليه رفعا ذلك إلى الله وهو ، أعلم فيقول : إن لعبدى علىَّ إن توفيته أن أدخله
الجنة ، وإن أنا شفيته أن أبدله لحما خيرا من لحمه ، ودما خيرا من دمه ، وأن أكفر عنه
سيئاته »^(٦) .

(١) أخرجه الترمذى [١٠٢١] ، وقال حديث حسن غريب ، والبغوى [٤٥٦/٤] ، وابن حبان [٢٩٣٧] ،
من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع برقم ٧٩٥ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه [١١٦/١٠ /فتح] ، والأدب المفرد [٥٣٤] ، وأحمد [١٤٤/٣] من
حديث أس رضى الله عنه .

(٣) أخرجه البخارى [٢٤٢/١١ /فتح] من حديث أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ [يقول الله تعالى : ما لعبدى
المؤمن عندى جزاء إذا] .

(٤) أخرجه البخارى [٥٦٥٢ /فتح] ، ومسلم [١٩٩٤/٤ /عبد الباقي] ، والبخارى فى الأدب المفرد [٥٠٥]
من حديث ابن عباس رضى الله عنه .

(٥) فى طبعة دار التراث والمتنبى : انظروا (انظر) ، والتصويب من الموطأ بترقيم عبد الباقي .

(٦) أخرجه مالك [٩٤٠/٢] ، وإسناده مرسل .

وفي صحيفة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا جمع الله الخلائق نادى مناد : أين أهل الصبر ؟ فيقوم ناس وهو قليلون فينطلقون سراعا إلى الجنة ، فتلقاهم الملائكة فيقولون : إنا نراكم سراعا إلى الجنة فمن أنتم ؟ فيقولون : نحن أهل الفضل . فيقولون ما كان فضلكم ؟ فيقولون : كنا إذا ظلمنا صبرنا ، وإذا أسئ إلينا غفرنا ، وإذا جهل علينا حلمنا . فيقال لهم : ادخلوا الجنة ، فنعمر أجر العاملين » (١) .

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قسم مالا ، فقال بعض الناس : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال : « رحم الله موسى ، قد أودى بأكثر من هذا فصبر » (٢) .

وفيهما أيضا من حديث أبي سعيد وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب (٣) ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها » (٤) .

وفي صحيح مسلم من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة » (٥) .

(١) أورده الغزالي في الإحياء [١٧٤/٣] ، وقال العراق : رواه البيهقي في شعب الإيمان من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وقال البيهقي في إسناده ضعف .

(٢) أخرجه البخاري [٤٧٠/١٠ /فتح] ، ومسلم [٧٣٩/٢ /عبد الباقي] ، وأحمد [٣٨٠/١] ، والبخاري [٢٣٩/١٣] ، وابن حبان [٣٩٠٦] ، [٩١٧٩] من حديث عبد الله بن مسعود .

(٣) المرض والوجع .

(٤) أخرجه البخاري [١٠٣/١٠ /فتح] ، والبخاري [٢٣٣/٥] من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما .

(٥) أخرجه مسلم [١٩٩٢/٤ /عبد الباقي] من حديث عائشة رضي الله عنها بلفظ [ما يصيب المؤمن من شوكة ...] .

وفي المسند من حديث أئ هريرة عن النبي ﷺ قال : « لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة في جسده وفي ماله وفي ولده حتى يلقى الله وما عليه خطيئة »^(١) .

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : « دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك وعكا شديدا . قال : فقلت : يا رسول الله إنك لتوعك وعكا شديدا . قال : أجل ، إني لأوعك كما يوعك رجلان منكم . قلت : إن لك لأجرين ؟ قال : نعم ، والذي نفسى بيده ما على الأرض مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله عنه به خطاياه كما تحط الشجرة اليابسة ورقها »^(٢) .

وفي بعض المسانيد مرفوعا : « إن الرجل لتكون له الدرجة عند الله لا يبلغها بعمل حتى يتلى بلاء في جسمه فيبلغها بذلك »^(٣) .

ويروى عن عائشة رضى الله عنها عن النبي ﷺ : « إذا اشتكى المؤمن أخلصه ذلك من الذنوب كما يخلص الكبر الخبث من الحديد »^(٤) .

وفي صحيح البخارى من حديث خباب بن الأرت قال : « شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد ببرد له في ظل الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا ؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدده ذلك عن

(١) أخرجه الترمذى [٢٣٩٩] وقال هنا حديث حسن صحيح . وأحمد [٢٨٧/٢] ، [٤٥٠] ، والحاكم [٣٢٦/١] وقال هنا حديث صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي . والبيهقى [٣٧٤/٣] ، والبخارى [٢٤٦/٥] ، وابن حبان [٢٩١٣] من طرق عن محمد بن عمرو عن أئ سلمة عن أئ هريرة به . وصححه الألبانى في صحيح الترمذى رقم ١٩٥٧ .

(٢) أخرجه البخارى [١١/١٠٠ فتح] ، ومسلم [١٩٩١/٤ عبد الباقي] ، وأحمد [٣٨/١] ، والبيهقى [١٩/٧] ، والبخارى [٢٤٢/٥] ، وابن حبان [٢٥٨/٤] من حديث عبد الله بن مسعود .

(٣) أخرجه هناد في الزهد [٤٠٠] عن حجاج بن جبلة بن سحيم عن أئ هريرة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه . قال محقق الزهد وإسناده ضعيف لضعف حجاج وهو ابن أرتاة . وإليه الراوى عن عبد الله بن مسعود .

(٤) أخرجه البخارى في الأدب المفرد [٤٩٧] وابن حبان [موارد/١٧٩] من حديث عائشة رضى الله عنها بلفظ [إذا اشتكى المؤمن وأخلصه الله كما يخلص الكبر الخبث الحديث] .

دينه . والله لِيُتَمَنَّ الله هذا الأمر حتى يصير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه . ولكنكم تستعجلون»^(١) .

وفي جامع الترمذى عن شيخ من بن مرة قال : قدمت الكوفة فأخبرت عن بلال ابن أبى بردة ، فقلت : إن فيه لمعترا . فأتيته وهو محبوس فى داره التى كان بنى ، وإذا كل شىء منه قد تغير من العذاب والضرب ، وإذا هو فى قشاش^(٢) . فقلت له : الحمد لله يا بلال لقد رأيتك تمر بنا وأنت تمسك أنفك من غير غبار ، وأنت فى حالتك هذه ، فكيف صبرك اليوم ؟ فقال : ممن أنت ؟ قلت : من بنى مرة بن عباد . قال : ألا أحدثك حديثا عسى أن ينفعك الله به ؟ قلت : هات . قال : حدثنى أبو بردة عن أبى موسى أن رسول الله ﷺ قال : « لا يصيب عبدا نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر . قال : وقرأ : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ [الشورى : ٣٠] »^(٣) .

وفي الموطأ من حديث عبد الرحمن بن القاسم قال : قال رسول الله ﷺ : « يُعَزَّرُ المسلمون فى مصائبهم المصيبة لى »^(٤) .

(١) أخرجه البحارى [٣٦١٢] [٣٨٥٢] [٦٦٤٣] وأحمد [٣١١/٥] ، [٣٩٥/٦] من حديث خباب بن الأرت .

(٢) ما كان ساقطا لا قيمة له وهى اللقطة .

(٣) أخرجه الترمذى [١٣٥٢/٥] وقال هذا حديث غريب أ.هـ . قال الشيخ الألبانى فى تعليقه على المشكاة [٤٩١/١] ، وعلمته - يعنى على ضعفه - أنه من رواية عبيد الله بن الوازع ، حدثنى شيخ من بنى مرة - وهما مجهولان .

(٤) أخرجه مالك [٢٣٦/١] ، وابن المبارك فى الزهد [١٥٨] ، وإسناده مرسل .

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « ما أعطى أحد عطاء خير وأوسع من الصبر »^(١) .

وفي بعض المسانيد عنه ﷺ أنه قال : « قال الله عز وجل : إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا »^(٢) .

وفي جامع الترمذي عنه ﷺ : « إذا أحب الله قوما ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط »^(٣) .

وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل على امرأة فقال : « مالك ترفرفين ؟ قالت : الحمى لا بارك الله فيها . قال : لا تسمى الحمى فإنها تذهب بخطايا بني آدم كما يذهب الكبر خبث الحديد »^(٤) .

ويذكر عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « من وعك ليلة فصر ورضي عن الله خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه »^(٥) .

وقال الحسن : إنه ليكفر عن العبد خطاياها كلها بحمى ليلة .

(١) أخرجه مالك [٩٩٧/٢] ، ومن طريقة البخاري [٣/٣٣٥/فتح] ، ومسلم [٧٢٩/٢/عبد الباقي] ، وأبو داود [١٢١/٢] ، والنسائي [٢٥٨٨] ، والترمذي [٢٠٣٤] ، والبيهقي [٨٩٥/٤] ، وابن حبان [٧٥/٥] عن ابن شهاب عن عطاء بن يزيد الليثي عن أبي سعيد الخدري ، ولفظ البخاري [لن تعطوا عطاء] .

(٢) ذكره السيوطي في « الجامع الصغير » [٨٣/٢] وعزاه إلى الحكيم الترمذي عن أنس ورمز له بالضعف أ. ه. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم [٤٠٤٨] .

(٣) أخرجه الترمذي [٥١٩/٤] ، وابن ماجه [٤٠٣١] بلفظ [عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم . فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط] من حديث أنس رضي الله عنه . وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم [٢٨٥٠] .

(٤) أخرجه مسلم [١٩٩٣/٤/عبد الباقي] وهما من حديث جابر رضي الله عنه .

(٥) عزاه السيوطي في « الجامع الصغير » إلى الحكيم عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ [من مرض ليلة] وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم [٥٨٦٨] .

وذكر عن أنى معمر الأزدي قال : كنا إذا سمعنا من ابن مسعود شيئا نكرهه سكتنا حتى يفسره لنا ، فقال لنا ذات يوم : ألا إن السِّمَّ لا يكتب له أجر . فسأنا ذلك وكبر علينا ، فقال : ولكن يكفر به الخطيئة . فسرنا ذلك وأعجبنا .

وهنا من كمال علمه وفقهه رضى الله عنه ، فإن الأجر إنما يكون على الأعمال الاختيارية ومما تولد منها . وأما الاسقام والمصائب فإن ثوابها تكفير الخطايا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ [الشورى : ٣٠] ، والنبى ﷺ إنما قال فى المصائب كفر الله بها من خطاياها . كما تقدم ذكر ألفاظه ﷺ .

وهذا لا يناق قولہ ﷺ : « ما ضرب على مؤمن عرق إلا كتب الله له به حسنة وحط عنه سيئة ورفع له درجة »^(١) ، لأن حصول الحسننة إنما هو بصيره الاختيارى على المصائب ، وهو عمل منه .

وذكر ابن أنى الدنيا عن أنى أمانة الباهلى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليخرج أحدكم بالبلاء وهو أعلم به كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار ، فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز ، فذلك الذى نجاه الله من السيئات . ومنهم من يخرج كالذهب الأسود ، فذلك الذى قد افتن »^(٢) .

وعن أنى ريحانة عن النبى ﷺ : « الحمى كبر من كبر جهنم ، وهى نصيب المؤمن من النار »^(٣) .

(١) أخرجه الحاكم [٣٤٧/١] ، وقال هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي . وقال الحافظ فى الفتح [٢٠٩/١] استاده جيد .

(٢) أخرجه الطبرانى [٧٦٩٨] والحاكم [٣١٤/٤] من طرق عن عضر بن معدان عن سليم بن عامر عن أنى أمانة رضى الله عنه مرفوعاً .

قال المهيتمى فى مجمع الزوائد [٢٩١/٢] ، فيه عضر بن معدان وهو ضعيف .

(٣) أخرجه أحمد [٢٥٢/٥] من حديث أنى أمانة بلفظ [الحمى من كبر جهنم فما أصاب المؤمن منها كان حظه من النار] ، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع رقم [٣١٩٠] .

وقال أنس رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « مثل المؤمن إذا برأ وضح من مرضه كمثل البردة تقع من السماء في صفائها ولونها »^(١) ذكره ابن أبي الدنيا .

وذكر أيضا عن أبي أمامة يرفعه : « ما من مسلم يُصرع صرعة من مرض إلا بعث منها طاهرا »^(٢) .

وقال عطية بن قيس : « مرض كعب فعاده رهط من أهل دمشق ، فقالوا : كيف تجددك يا أبا إسحاق ؟ قال : بخير ، جسد أخذ بذنبه إن شاء ربه عذبه وإن شاء رحمه ، وإن بعثه بعثه خلقا جديدا لا ذنب له » .

وعن أبي أيوب الأنصاري قال : عاد رسول الله ﷺ رجلا من الأنصار وأكب عليه فسأله فقال : يا نبي الله ما غمضت منذ سبع ، فقال رسول الله ﷺ : « أى أنحى أصبر تخرج من ذنوبك كما دخلت فيها » ثم قال رسول الله ﷺ : « ساعات الأمراض يذهبن ساعات الخطايا »^(٣) .

وقال الحسن - وذكر الوجد : أما والله ما هو بشر أيام المسلم . أيام نورت له فيها مراحلها ، وذكر فيها ما نسي من معاده ، وكُفر بها عنه من خطاياها .

وقال بعض السلف : لولا مصائب الدنيا لوردنا الآخرة مفاليس .

وإذا حمد المريض الله ثم أخبر بعلته لم يكن شكوى منه ، وإن أخبر بها تبرما وتسخطا كان شكوى منه . فالكلمة الواحدة قد يثاب عليها وقد يعاقب ، بالنية والقصد .

(١) أخرجه الزوار [٧٦٢ / كشف الأستار] ، والدليمي في مسند الفردوس [١٤٣ / ٢ / هامش] ، من طرق عن الوليد بن محمد المقرئ عن الزهري عن أنس بلفظ [مثل المريض] وقال العراقى في تعليقه على الإحياء [٢٨١ / ٤] إسناده ضعيف .

(٢) أخرجه الطبراني [٧٤٨٥] من حديث أبي أمامة بلفظ [ما من عید يصرع] وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم [٥٧٤٣] .

(٣) عزاه السيوطي في الجامع الصغير إلى البيهقي في شعب الإيمان وقال الألباني في ضعيف الجامع : ضعيف جدًا رقم [٣٢٠٨] .

ويذكر عن أنس عن النبي ﷺ قال : « إذا مرض العبد ثلاثة أيام خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه »^(١) .

وقال زياد بن الريع : قلت لأبي بن كعب : آية من كتاب الله قد أحزنتني قال : ما هي ؟ قلت : ﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾ [النساء : ١٢٣] قال : ما كنت أراك إلا أفقه مما أرى ، إن المؤمن لا يصيبه عثرة قدم ولا اختلاج^(٢) عرق إلا بذنب ، وما يغفو الله عنه أكثر .

وسئلت عائشة عن هذه الآية فقالت : ما سألتني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ : « يا عائشة هذه معاقبة الله تعالى لعبده بما يصيبه من الحمى والمليلة^(٣) والشوكة وانقطاع شسعه ، حتى البضاعة يضعها في كمه^(٤) فيفقدوها فيفزع لها فيجدها في ضنبه ، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج الذهب الأحمر من الكير »^(٥) ضبن الإنسان : ماتحت يده .

وفي بعض كتب الله سبحانه : « إن الله ليصيب العبد بالأمر يكرهه وإنه ليحيه ، لينظر كيف تضرعه إليه » .

(١) عزاه السيوطي في الجامع الصغير إلى الطبراني في الأوسط من حديث أنس رضي الله عنه . وضعفه الألباني في ضعيف الجامع رقم ٨٠٢ .

(٢) اختلاج : الاختلاج الحركة والاضطراب .

(٣) المليلة : هي حرارة الحمى وتوهجها ، وقيل : هي الحمى التي تكون في العظام .

(٤) الكم من الثوب مدخل اليد ومخرجها .

(٥) أخرجه الترمذي [٧٨/٤ - ٧٩] ، وأحمد [٢١٨/٦] والطحاوي [١٥٨٤] ، وابن جرير [٦٤٩٥] وابن أبي حاتم فيما نقله عنه ابن كثير [٨٥/٢] ، من طريق علي بن زيد عن أمية أنها سألت عائشة عن هذه الآية ﴿ وإن تبلوا ما في أنفسكم أو تخفوه بحاسبكم به الله ﴾ و ﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾ فقالت : [ما سألتني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ فقال : يا عائشة ، هذه متابعة الله العبد بما يصيبه من الحمى والنكبة 'شونه حتى البضاعة يضعها في كمه فيفقدوها ، فيفزع لها فيجدها في ضنبه ، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج امر الأحمر من الكير] قال الترمذي [هذا حديث غريب من حديث عائشة] وقال ابن كثير [علي بن زيد - جدهان : ضعيف يعرب في رواياته . وهو يروي هذا الحديث عن امرأة أبيه أم محمد بنت عبد الله عن عائشة وليس لها عنها في الكتب سواء] .

وقال معروف الكرخي : « إن الله ليبتلي عبده المؤمن بالأسقام والأوجاع فيشكو إلى أصحابه ، فيقول الله تبارك وتعالى : وعزتي وجلالي ما ابتليتك بهذه الأوجاع والأسقام إلا لأغسلك من الذنوب ، فلا تشكني » .

وفي المسند عنه صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له ؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، وليس ذلك إلا للمؤمن » ^(١) .

(١) أخرجه مسلم [٢٢٩٥] وأحمد [١٦/٦] ، والدارمي [٣١٨/٢] بنحوه من حديث صهيب بن سنان رضي الله عنه .

(*) والأحاديث المرفوعة في فضل الصبر كثيرة جداً ، اكتفينا منها بهذا القدر .

الباب الخامس عشر :

الآثار الواردة عن الصحابة ومن بعدهم فى فضيلة الصبر

عن السفر قال : « مرض أبو بكر رضى الله عنه فعادوه ، فقالوا : ألا ندعو لك الطبيب ؟ فقال : قد رأى الطبيب . قالوا : فأى شئ قال لك ؟ قال : قال إني فعال لما أريد » .

وعن مجاهد قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « وجدنا خير عيشنا بالصبر » وقال أيضا : « أفضل عيش أدركناه بالصبر ، ولو أن الصبر كان من الرجال كان كريما » .

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : « ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فإذا قطع الرأس بار الجسم . ثم رفع صوته فقال : ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له » . وقال : « الصبر مطية لا تكبو » .

وقال الحسن : « الصبر كنز من كنوز الخير لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده » .

وقال عمر بن عبد العزيز : « ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاذه مكانها الصبر إلا كان ما عوضه خيرا مما انتزعه » .

وقال ميمون بن مهران : « ما نال أحد شيئا من ختم الخير فما دونها إلا الصبر » .

وقال سليمان بن القاسم : « كل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] ، قال : كالماء المنهر » .

وكان بعض العارفين فى جيبه رقعة يخرجها كل وقت ينظر فيها ، وفيها : ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ [الطور : ٤٨] .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « لو كان الصبر والشكر بعيرين لم أبال أيهما ركبت » .

وكان محمد بن شيرمة إذا نزل به بلاء قال : « سحابة صيف ثم تنقشع » .

وقال سفيان بن عيينة فى قوله تعالى : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ﴾ [السجدة : ٢٤] : « لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤوسا » .

وقيل للأخنف بن قيس : ما الحلم ؟ قال : أن تصبر على ما تكره قليلاً .

وعن قتادة قال : قال لقمان - وسأله رجل : أى شىء خير ؟ قال : صبر لا يتبعه أذى ، قال : فأى الناس خير ؟ قال : الذى يرضى بما أوتى ، قال : فأى الناس أعلم ؟ قال : الذى يأخذ من علم الناس إلى علمه ، قيل : فما خير الكثر من المال أو من العلم ؟ قال : سبحان الله بل المؤمن العالم الذى إن ابتغى عنده خيراً وجد ، وإن لم يكن عنده كف نفسه ، وبحسب المؤمن أن يكف نفسه .

وقال حسان بن أبى جبلة فى قوله تعالى : ﴿ فصبر جميل ﴾ [يوسف : ١٨] ، ٨٣ [قال : لا شكوى فيه .

وقال مجاهد : ﴿ فصبر جميل ﴾ : فى غير جزع . وقال عمرو بن قيس : ﴿ فصبر جميل ﴾ قال : الرضا بالمصيبة والتسليم .

وقال همام عن قتادة فى قوله تعالى : ﴿ وابيضت عيناه » : فهو كظيم ﴿ [يوسف : ٨٤] قال : كظم على حزن فلم يقل إلا خيراً . وقال يحيى بن المختار عن الحسن : الكظيم : الصبور .

وقال الحسن : ما جرعتين أحب إلى الله من جرعة مصيبة موجعة مخزنة ردها صاحبها بحسن عزاء وصبر ، وجرعة غيظ ردها بحلم .

وقال سيعد بن جبير : الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه ، واحتسابه عند الله . ورجاء ثوابه ، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر .

فقوله : (اعتراف العبد لله بما أصاب منه) كأنه تفسير لقوله : ﴿ إنا لله ﴾ فيعترف أنه ملك لله يتصرف فيه مالكة بما يريد . وقوله : (راجيا به ما عند الله) كأنه

تفسير لقوله : ﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٦] أى نرد إليه فيجزينا على صبرنا ولا يضيع أجر المصيبة . وقوله : (وقد يجزع الرجل وهو يتجلد) أى ليس الصبر بالتجلد وإنما هو حبس القلب عن التسخط على المقلدور ، ورد اللسان عن الشكوى . فمن تجلد وقلبه ساخط على القدر فليس بصابر .

وقال يونس بن يزيد : سألت ربيعة بن أبى عبد الرحمن : ما متبى الصبر ؟ قال : أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبل أن تصيبه .

وقالت امرأة من قريش :

أما والذي لا خلد إلا لوجهه ومن ليس في العز المنيع اه كفو
لئن كان بدء الصبر مرا مذاقه لقد يجنى من غبته الثمر الحلو

وقال أحمد بن موسى الثقفى :

نبئت خولة أمس قد جزعت من أن تنوب نوائب الدهر
لا تجزعى يا خول واصبرى إن الكرام بنوا على الصبر

وقال عمر بن عبد العزيز : « أما الرضا فمنتزلة عزيزة^(١) - أو منيعة - ولكن جعل الله في الصبر معولا حسنا » ، ولما مات عبد الملك ابنه صلى عليه ثم قال : « رحمك الله لقد كنت لى وزيرا وكنت لى معينا » قال : والناس ييكون وما يقطر من عينيه قطرة .

وقال عبيد بن عمير : ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب ، ولكن الجزع القول السيء والظن السيء .

(١) لأنها أعلى من مجرد الصبر ، فالرضا : هو أن يرضى العبد عن كل قضاء قضاه الله عليه ولا يختار لنفسه شيئا ، لأنه علم أن الخير فيما يختاره الله له .

الباب السادس عشر :

أمور تتعلق بالمصيبة من البكاء والندب وشق الثياب ودعوى الجاهلية ونحوها

(أ) البكاء :

أما البكاء على الميت فقد كرهه قوم من الفقهاء مطلقا ، وكرهه قوم بعد خروج الروح وأباحوه قبل أن تخرج ، وأجازوه قوم . والواضح من الأدلة هو إباحته ولكن بدون أن يقارنه مخذور من ندب أو نياحة أو غيرها .

واحتج من كرهه قبل الموت بحديث جابر بن عتيك : « أن رسول الله ﷺ جاء يعود عبد الله بن ثابت فوجده قد غلب فصاح به ، فلم يُعجب ، فاسترجع وقال : غلبنا عليك يا أبا الريح . فصاح النسوة وبكين ، فجعل ابن عتيك يسكتهن . فقال رسول الله ﷺ : دغهن فإذا وجب فلا تبكين باكية . قالوا : وما الوجوب يا رسول الله ؟ قال : الموت » (١) .

وبعد الموت بحديث ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الميت ليعذب ببكاء أهله » (٢) .

واحتج المجوزون بأثنى عشر دليلا منها :

(١) أخرجه مالك [٢٣١/١] ، وأبو داود [٣١١١] والنسائي [١٨/٦] ، والحاكم [٣٥٢/١] وصححه ووافقه الذهبي ، والبيهقي [٧٠/٤] ، والبخاري [٤٣٤/٥] ، وصححه محقق البخاري لشواهد [٣٧٠/٥] .

(٢) أخرجه البخاري [١٥١/٣] ، ومسلم [٤٤١/٢] ، من حديث ابن عمر رضى الله عنه .

حديث جابر بن عبد الله قال : أصيب أئى يوم أحد فجعلت أبكى فجعلوا ينهوننى ، ورسول الله ﷺ لا ينهانى ، فجعلت عمئى فاطمة تبكى فقال النبى ﷺ : « تبكين أو لا تبكين ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه » (١) .

وحديث ابن عمر قال : « اشتكى سعد بن عبادة شكوى له فأتاه النبى ﷺ يعودوه مع عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أئى وقاص وعبد الله بن مسعود فلما دخل عليه وجده فى غشية ، فقال : قد قضى ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، فبكى رسول الله ﷺ ، فلما رأى القوم بكاءه بكوا ، فقال : ألا تسمعون أن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ، ولكن يعذب بهذا - وأشار إلى لسانه - أو يرحم » (٢) .

قالوا : ونصوص الإباحة أكثرها متأخرة [عن نصوص النهى] .

(ب) الندب والنيابة :

وأما الندب والنيابة فنص أحمد على تحريمهما ؛ قال فى رواية حنبل : النيابة معصية . وقال أصحاب الشافعى وغيرهم : النوح حرام . وقال ابن عبد البر : أجمع العلماء على أن النيابة لا تجوز للرجال ولا للنساء .

وقال بعض المتأخرين من أصحاب أحمد : يكره تنزيها .

والصواب : القول بالتحريم ، لما فى الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود أن النبى ﷺ قال : « ليس منا من ضرب الخلود أو شق الجيوب أو دعى بدعوى الجاهلية » (٣) .

(١) أخرجه البخارى [١١٤/٣ فتح] واللفظ له ، ومسلم [١٩١٨/٤ عبد الباقي] من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

(٢) أخرجه البخارى [١٧٥/٣ فتح] ، ومسلم [٦٣٦/٢ عبد الباقي] من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

(٣) أخرجه البخارى [١٦٣/٣ فتح] ، ومسلم [٩٩/١ عبد الباقي] واللفظ له من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

وفي الصحيحين أيضا عن أنى بردة قال : « وجع أبو موسى وجعا فغشى عليه ورأسه في حجر امرأة من أهله فصاحت امرأة من أهله ، فلم يستطع أن يرد عليها شيئا ، فلما أفاق قال : أنا برىء مما برىء منه رسول الله ﷺ فإن رسول الله ﷺ برىء من الصالحة والحالقة والشاقة » (١) .

وفي الصحيحين أيضا عن المغيرة بن شعبة قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن من يُنَحَّ عليه يُعَذَّب بما يُنَحَّ عليه » (٢) .

وفي الصحيحين أيضا عن أم عطية قالت : « أخذ علينا رسول الله ﷺ في البيعة : ألا ننوح . فما وفّت منا امرأة إلا خمس نسوة » (٣) .

وفي صحيح مسلم عن أنى مالك الأشعري أن النبي ﷺ قال : « أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركوهن : الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة » (٤) .

وقال : النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب (٥) .

(١) أخرجه البخارى [١٦٥/٣ فتح] ، ومسلم [١٠٠/١ عبد الباقي] من حديث أنى موسى الأشعري رضى الله عنه .

والصالقة : هى التى ترفع صوتها عند المصيبة ، والصلق : هو الصياح والولولة والصوت الشديد . والحالقة : هى التى تحلق شعرها . والشاقة : هى التى تشق ثيابها . وليس المراد بهنا الحديث النساء فقط ، بل المراد النهى عن الفعل نفسه عند المصائب وقد ورد بألفاظ منها : « ليس منا من سلق ومن حلق ومن خرق » وهو حديث صحيح رواه أبو داود والنسائى عن أنى موسى . انظر صحيح الجامع [٥٣١٤] .

(٢) أخرجه البخارى [١٦٠/٣ فتح] ، ومسلم [٦٤٤/٢ عبد الباقي] بلفظ [من ينح عليه] من حديث المغيرة بن شعبة رضى الله عنه .

(٣) أخرجه البخارى [١٧٦/٣ فتح] ومسلم [٦٤٥/٢ عبد الباقي] من حديث أم عطية رضى الله عنها .

(٤) أخرجه مسلم [٩٤٤/٢ عبد الباقي] ، والبيهقى [٦٣/٤] من حديث أنى موسى الأشعري رضى الله عنه .

(٥) أخرجه مسلم [٦٤٤/٢ عبد الباقي] ، والبيهقى [٦٣/٤] ، من حديث أنى مالك الأشعري رضى الله عنه .

وفي سنن أبي داود عن امرأة من المبيعات قالت : « كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ في المعروف الذي أخذ علينا أن لا نعصيه فيه : أن لا نخمش وجهها ، ولا ندعو ويلاً ، ولا نشق نجيباً ، ولا ننشف شعراً » (١) .

وفي صحيح البخاري عن النعمان بن بشير قال : « أغمى على عبد الله بن رواحة فجعلت أخته عمرة تبكي وتقول : واجبلاه ، واكذا واكذا ، تُعَدُّ عليه . فقال حين أفاق : ما قلت شيئاً إلا قيل لي : أنت كذا ؟ فلما مات لم تبك عليه » (٢) .

وكيف تكون هذه الخصال محرمة ؟! وهي مشتملة على التسخط على الرب ، وفعل ما يناقض الصبر ، والإضرار بالنفس : من لطم الوجه وحلق الشعر ونشفه والدعاء على النفس بالويل والثبور ، والتظلم من الله سبحانه ، وإتلاف المال : بشق الثياب وتمزيقها ، وذكر الميت بما ليس فيه . ولا ريب أن التحريم الشديد يثبت ببعض هذا (٣) .

وأما من أباحوا النذب مع كراهتهم له - واستدلوا بحديثي المبيعة : بأن الرسول قال لامرأة : « إلا آل فلان » (٤) ، وسكت عن أخرى (٥) ، بعد أن طلبتا منه ﷺ النياحة مشاركة لمن شاركوهما قبل الإسلام - فقد رد عليهم بأن ذلك خاص بهما لوجهين :

أحدهما : أنه قال لغيرهما لما سأله ذلك : « لا إسعاد في الإسلام » (٦) .

والثاني : أنه أطلق لهما ذلك وهما حديثا عهد بالإسلام . فعلم أن الحكم لا يعلوهما إلى غيرهما .

(١) أخرجه أبو داود [٣١٣١] ومس طريقه البيهقي [٦٤/٤] ، وقال الألباني في أحكام الجنائز : إسناده صحيح [٣٠] .

(٢) أخرجه البخاري [٥١٦/٧ فتح] ، والبيهقي [٦٤/٤] من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه .

(٣) فكيف إذا اجتمعت كل هذه الأمور ؟!

(٤) أخرجه مسلم [٦٤٦/٢ عبد الباقي] ، والبيهقي [٦٢/٤] من حديث أم عطية رضي الله عنها .

(٥) أخرجه البخاري [٥٣٧/٨ فتح] ، ومسلم [٦٤٦/٢ عبد الباقي] ، والبيهقي [٦٢/٤] من حديث أم عطية رضي الله عنها .

(٦) أخرجه النسائي [١٨٥٢] ، وأحمد [١٩٧/٣] ، والبيهقي [٦٢/٤] من حديث أنس رضي الله عنه . وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم [٧١٦٨] .

والإسعاد : هو أن تقوم المرأة في المناحة فتقوم معها حاراتها فيساعدنها ويتابعها مادامت تروح عليه وتكبه

وأما الكلمة اليسيرة إذا كانت صدقاً لا على وجه النوح والتسخط فلا تحرم ولا تنافي الصبر الواجب ، ومن ذلك ما في المسند من حديث أنس : « إن أبا بكر دخل على النبي ﷺ بعد وفاته فوضع فمه بين عينيه ووضع يده على صدغيه ، وقال : وانياه واخليلاه واصفياه » .

وفي صحيح البخارى عن أنس قال : « لما ثقل على النبي ﷺ جعل يتغشاه الكرب فقالت فاطمة : واكرب أبتاه ، فقال : ليس على أهلك كرب بعد اليوم . فلما مات قالت : يا أبتاه أجاب رباً دعاه ، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه إلى جبريل أنعاه . فلما دفن قالت فاطمة : يا أنس أطابت أنفسكم أن تبحثوا على رسول الله ﷺ التراب ؟ ! » (١) .

وقال النبي ﷺ : « وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون » (٢) .

وهذا ونحوه من القول الذى ليس فيه تظلم للمقدور ولا تسخط على الرب ولا إسقاط له فهو كمجرد البكاء .

هل يعذب الميت بالبكاء عليه ؟

وأما قول النبي ﷺ : « إن الميت ليعذب بالنياحة عليه » (٣) فقد ثبت عنه من رواية عمر بن الخطاب ، وابنه عبد الله ، والمغيرة بن شعبة ، وروى نحوه عن عمران بن حصين ، وأبى موسى رضى الله عنهم . فاختلفت طرق الناس فى ذلك .

فقال فرقة : يتصرف الله فى خلقه بما يشاء ، وأفعال الله لا تعلل ، ولا فرق بين تعذيبه بالنوح عليه والتعذيب بما هو منسوب إليه ، لأن الله خالق الجميع ، والله تعالى يؤلم الأطفال والبهائم والمجانين بغير عمل .

(١) أخرجه البخارى [١٤٩/٨ فتح] من حديث أنس رضى الله عنه .

(٢) أخرجه البخارى [١٧٣/٣ فتح] ، وأبو داود [٣١٢٦] واللفظ له من حديث أنس رضى الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم [٦٣٩/٢ عبد الباقي] بلفظ [الميت يعذب فى قبره بما نوح عليه] من حديث عمر رضى الله عنه .

وقالت فرقة : هذه الأحاديث لا تصح عن رسول الله ﷺ ، وقد أنكرتها السيدة عائشة رضي الله عنها ، واحتجبت بقوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الأنعام : ١٦٤ ، وغيرها] ، وقالت : إنما مر النبي ﷺ على قبر يهودية فقال : « إن صاحب هذا القبر يعذب ، وأهله سيكون عليه »^(١) .

وقالت فرقة منهم المزي وغیره : إن ذلك محمول على من أوصى به إذ كانت عاداتهم ذلك ، وهو كثير في أشعارهم كقول طرفة :

إذا مت فانعيني بما أنا أهله وشقي على الجيب يا ابنة معبد

وقالت طائفة : هو محمول على من سنته وسنة قومه ذلك إذا لم ينهم عنه ، لأن ترك نهي دليل على رضاه به ، فأما إذا أوصاهم بتركه فخالقوه فالله أكرم من أن يعذبه بذلك .

معنى العذاب والوارد في الأحاديث

ولا تحتاج هذه الأحاديث إلى شيء من هذه التكاليفات ، وليس فيها بحمد الله إشكال ولا مخالفة لظاهر القرآن ولا لقاعدة من قواعد الشرع ، ولا تتضمن عقوبة الإنسان بذنب غيره .

فإن النبي ﷺ لم يقل إن الميت يعاقب ببكاء أهله عليه ونوحهم ، إنما قال يعذب بذلك : ولا ريب أن ذلك يؤلمه ويعذبه ، والعذاب : هو الألم الذي يحصل له وهو أعم من العقاب ، والأعم لا يستلزم الأخص .

وقد قال النبي ﷺ : « السفر قطعة من العذاب »^(٢) .

(١) أخرجه البخارى [١٥٢/٣ / فتح] ، ومسلم [٦٤٣/٢] [٦٤٣/٢] والنسائي [١٨٥٦] من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) أخرجه البخارى [٦٢٢/٣ / فتح] ، ومسلم [١٥٢٦/٣ / عبد الباقي] ، والبيهقي [٢٥٩/٥] ، وابن حبان [٢٦٩٧] من حديث أنى هريرة رضي الله عنه .

وهذا العذاب يحصل للمؤمن والكافر حتى إن الميت ليتألم بمن يعاقب في قبره في جواره ويتأذى بذلك كما يتأذى الإنسان في الدنيا بما يشاهده من عقوبة جاره . فإذا بكى أهل الميت عليه البكاء المحرم - وهو البكاء الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه ، والبكاء على الميت عندهم اسم لذلك ، وهو معروف في نظمهم ونثرهم - تألم الميت بذلك في قبره ، فهذا التألم هو عذابه بالبكاء عليه .

الباب السابع عشر :

حقيقة الشكر وما هيته (*)

قال في الصحاح : الشكر : الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف . يقال : شكرته ، وشكرت له ، وباللام أفصح .

واشكرت السماء : اشتد وقع مطرها . واشكرت الضرع : امتلأ لبنا . تقول منه : شكرت الشجرة شكرا : إذا خرج منها الشكير وهو ما ينبت حول الشجرة من أصلها . ويقال دابة شكور : إذا أظهرت من السمن فوق ماتعطى من العلف .

فتأمل هذا الاشتقاق وطابق بينه وبين الشكر المأمور به ، وبين الشكر الذى هو جزاء الرب الشكور . كيف تجدد في الجميع معنى الزيادة والثناء .

وشكر العبد يدور على ثلاثة أركان لا يكون شكورا إلا بمجموعها :

(أحدها) : اعترافه بنعمة الله عليه .

(والثاني) : الثناء عليه بها .

(والثالث) : الاستعانة بها على مرضاته .

أقوال الناس في الشكر

قالت طائفة : هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع . وقيل : الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه إليه . فشكر العبد : ثناؤه عليه بذكر إحسانه إليه .

وقيل : شكر النعمة : مشاهدة المنّة ، وحفظ الحرمة ، والقيام بالخدمة .

(*) ذكر ابن القيم رحمه الله تنازع الناسي : هل الصبر أفضل أم الشكر ، وأفاض في ذكر حجج كل من الفريقين من القرآن والسنة والآثار . وذكر في خلال ذلك « حقيقة الشكر وما هيته » فرأينا أن نقدمه ها هنا ، ثم نذكر بعده ملخص الخلاف والتحقيق في المسألة من خلال مقتطفات من كلام ابن القيم رحمه الله .

وقيل : شكر النعمة : أن ترى نفسك فيها طفيليا [يعنى لا تستحقها] .

وقيل : الشكر معرفة العجز عن الشكر .

ويقال : الشكر على الشكر أتم من الشكر . وذلك أن ترى شكري بتوفيقه ،
وذلك التوفيق من أجل النعم عليك . فتشكره سبحانه على نعمه ، ثم تشكره على توفيقه
لك حتى تشكره .

وقيل : الشكر استفراغ الطاقة في الطاعة .

وقيل : الشاكر الذى يشكر على الموجود . والشكور الذى يشكر على المفقود .

وقيل : الشاكر الذى يشكر على الرشد . والشكور الذى يشكر على الرد .

وقيل : الشاكر الذى يشكر على النفع . والشكور الذى يشكر على المنع .

وقيل : الشاكر الذى يشكر على العطاء . والشكور الذى يشكر على البلاء .

وقال الشبلى : الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعم . وهذا ليس بجيد ، بل من تمام
الشكر أن تشهد النعمة من المنعم .

وقال أبو عثمان : شكر العامة على المطعم والملبس ، وشكر الخواص على ما يرد
على قلوبهم من المعاني .

ودخل رجل على سهل بن عبد الله فقال : اللص دخل دارى وأخذ متاعى .
فقال : اشكر الله ، فلو دخل اللص قلبك - وهو الشيطان - وأفسد عليك التوحيد ماذا
كنت تصنع ؟

وقيل : الشكر التلذذ بشئائه على ما لم يستوجب (أى الإنسان) من عطائه .
وقيل : إذا قصرت يدك عن المكافأة فليطّل لسانك بالشكر . وقيل : أربعة لا ثمره لهم :
مشاورة الأصم ، ووضع النعمة عند من لا يشكرها ، والبذر في السباح ، والسراج في
الشمس .

كيف يكون الشكر ؟ والفرق بين الشكر والحمد

والشكر يتعلق بالقلب واللسان والجوارح . فالقلب للمعرفة والمحبة ، واللسان للثناء والحمد ، والجوارح لاستعمالها في طاعة المشكور وكفها عن معاصيه . وقال الشاعر :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولسانى والضمير المحجبا
والشكر أخص بالأفعال ، والحمد أخص بالأقوال . وسبب الحمد أعم من سبب الشكر . ومتعلق الشكر وما به الشكر أعم مما به الحمد . فما يحمد الرب تعالى عليه أعظم مما يشكر عليه ، فإنه يحمد على أسمائه وصفاته وأفعاله ونعمه ، ويشكر على نعمه . وما يحمد به أخص مما يشكر به ، فإنه يشكر بالقلب واللسان والجوارح ، ويحمد بالقلب واللسان .

تلازم الصبر والشكر

إذا عرف هذا فكل من الصبر والشكر داخل في حقيقة الآخر لا يمكن وجوده إلا به ، وإنما يعبر عن أحدهما باسمه الخاص به باعتبار الأغلب عليه والأظهر منه ، وإلا فحقيقة الشكر إنما يلتزم من الصبر والإرادة والفعل ، فإن الشكر هو العمل بطاعة الله وترك معصيته ، والصبر أصل ذلك . فالصبر على الطاعة وعن المعصية هو عين الشكر ، وإذا كان الصبر مأمورًا به فأداؤه هو الشكر .

وليس معنى هذا أنهما شيء واحد ، وإنما المراد أنهما متلازمان ويفتقر كل واحد منهما إلى الآخر في ماهية وجوده .

الباب الثامن عشر :

تنارع الناس فى الأفضل من الصبر والشكر

حكى أبو الفرج ابن الجوزى فى ذلك ثلاثة أقوال :

(أحدها) : أن الصبر أفضل .

(والثانى) : أن الشكر أفضل .

(والثالث) : أنهما سواء ، كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما ركبت » .

وانبنى على هذه المسألة مسألة : الغنى الشاكر والفقر الصابر أيهما أفضل ؟

أساس الفضل : التقوى

والتحقيق أن يقال : أفضلهما أتقاهما لله تعالى . فإن فرض استواءهما فى التقوى استويا فى الفضل ، فإن الله سبحانه لم يفضل بالفقر والغنى كما لم يفضل بالعافية والبلاء ، وإنما فضل بالتقوى كما قال تعالى : ﴿ إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، وقد قال ﷺ : « لا فضل لعربى على عجمى ولا فضل لعجمى على عربى إلا بالتقوى ، الناس من آدم وآدم من تراب »^(١) .

والتقوى مبنية على أصلين : الصبر، والشكر . وكل من الغنى والفقر لابد له منهما ، فمن كان صبره وشكره أتم كان أفضل .

فإن قيل : فإذا كان صبر الفقير أتم وشكر الغنى أتم فأيهما أفضل ؟ قيل : أتقاهما لله فى وظيفته ومقتضى حاله ، ولا يصح التفضيل بغير هذا البتة . فإن الغنى قد يكون

(١) أخرجه أحمد [٤١١/٥] ، وقال الهيثمى فى المجمع [٢٦٦/٣] : رجاله رجال الصحيح . قال محقق راد المسر لابن الجوزى [٤٧٥/٧] : إسناده صحيح .

أتقى لله في شكره من الفقير في صبره ، وقد يكون الفقير أتقى لله في صبره من الغنى في شكره . فلا يصح أن يقال : هذا بغناه أفضل ، ولا هذا بفقره أفضل . ولا يصح أن يقال : هذا بالشكر أفضل من هذا بالصبر ، ولا بالعكس ، لأنهما مطيتان للإيمان لا بد منهما .

بل الواجب أن يقال : أقومهما بالواجب والمنسوب هو الأفضل ، فإن التفضيل تابع لهذين الأمرين ، كما قال تعالى في الأثر الإلهي : « ما تقرب إلى عبدى بمثل مداومة ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه »^(١) ، فأى الرجلين كان أقوم بالواجبات وأكثر نوافل كان أفضل .

الرسول ﷺ كان أصبر الخلق وأشكرهم

وقد احتج بحال رسول الله ﷺ كل واحدة من الطائفتين . والتحقيق أن الله سبحانه وتعالى جمع له بين كليهما على أتم الوجوه ، وكان سيد الأغنياء الشاكرين وسيد الفقراء الصابرين ، فحصل له من الصبر على الفقر ما لم يحل لأحد سواه ، ومن الشكر على الغنى ما لم يحصل لغنى سواه .

فمن تأمل سيرته وجد الأمر كذلك ، فكان ﷺ أصبر الخلق في مواطن الصبر ، وأشكر الخلق في مواطن الشكر ، وربّه تعالى كمل له مراتب الكمال فجعله في أعلى رتب الأغنياء الشاكرين وفي أعلى مراتب الفقراء الصابرين ، قال تعالى : ﴿ ووجدك علائلا فأغنى ﴾ [الضحى : ٨] ، وأجمع المفسرون أن العائل هو الفقير ، ويقال : عال الرجل يعيل إذا افتقر .

فالله سبحانه جعل نبيه غنيا شاكرا بعد أن كان فقيرا صابرا ، فلا تحتج به طائفة لحالها إلا كان للطائفة الأخرى أن تحتج به أيضا لحالها .

(١) أخرجه البخارى [٣٤٠/١١ فتح] ، والبيهقى [٢١٩/١٠] ، [٣٤٦/٣] ، والبخارى [١٩/٥] ، وابن حبان [٢٨٠/١] من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ [..... ما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضته عليه وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه] .

الفقر والغنى مطيتان للابتلاء

والله سبحانه كما هو خالق الخلق ، فهو خالق ما به غناهم وفقهم ، فخلق الغنى والفقر ليتلى بهما عباده أيهم أحسن عملا ، وجعلهما سببا للطاعة والمعصية والثواب والعقاب ، قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوَكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٥] .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : بالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر والحلال والحرام . وكلها بلاء .

وقال ابن يزيد : نبلوكم بما تحبون وما تكرهون لننظر كيف صبركم وشكركم فيما تحبون وما تكرهون .

وقال الكلبي : بالشئ : بالفقر والبلاء . والخير : بالمال والولد .

فأخبر سبحانه أن الغنى والفقر مطيتا الابتلاء والامتحان . وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا ﴾ [الفجر : ١٥ - ١٧] ، فأخبر سبحانه أنه يتلى عبده بإكرامه له وبتنعيمه له وبسط الرزق عليه ، كما يتلى بتضييق الرزق وتقديره عليه ، وأن كليهما ابتلاء منه وامتحان . ثم أنكر سبحانه على من زعم أن بسط الرزق وتوسعته إكرام من الله لعبده ، وأن تضييقه عليه إهانة منه له ، فقال : ﴿ كَلَّا ﴾ أى ليس الأمر كما يقول الإنسان ، بل قد أبلى بنعمتى وأنعم ببلائى .

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِيهَا أَمَّا تُمْ كَلَّا ﴾ [الأنعام : ١٦٥] وقال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيَبْلُوَهُمْ فِيهَا أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف : ٧] .

فهذه ثلاثة مواضع فى القرآن يخبر فيها سبحانه أنه خلق العالم العلوى والسفلى وما بينهما وأجل العالم وأجل أهله وأسباب معائشهم التى جعلها زينة للأرض من الذهب والفضة والمساكن والملابس والمراكب والزروع والثمار والحيوان والنساء والبنين وغير

ذلك ، كل ذلك خلقه للابتلاء والامتحان ، ليختبر خلقه أيهم أطوع له وأرضى ، فهو الأحسن عملاً .

والمقصود أنه سبحانه وتعالى خلق الغنى والفقير مطيعين للابتلاء والامتحان ، ولم ينزل المال لجرد الاستمتاع به ، كما في المستند عنه عليه السلام قال : « يقول الله تعالى : إنا نزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولو كان لابن آدم وادٍ من مال لا يتغى إليه ثانيا ، ولو كان له ثلثان لا يتغى له ثالثا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب » ^(١) .

فأخبر سبحانه أنه أنزل المال ليستعان به على إقامة حقه بالصلاة ، وإقامة حق عبادة بالزكاة . لا للاستمتاع والتلذذ كما تأكل الأنعام . فإذا زاد المال عن ذلك أو خرج عن هذين المقصودين فإن الغرض والحكمة التي أنزل لها كان التراب أولى به . فرجع هو والجوف الذي امتلأ به بما خلق له من الإيمان والعلم والحكمة ، فإنه خلق لأن يكون وعاء لمعرفة ربه وخالقه والإيمان به ومحبه وذكره ، وأنزل عليه من المال ما يستعين به على ذلك . فعطل الجاهل بالله وبأمر الله وبتوحيد الله وبأسمائه وصفاته جوفه عما خلق له ، وملأه بمحبة المال - الفاني الناهب الذي هو ذاهب عن صاحبه أو بالعكس - وجمعه والاستكثار منه ، ومع ذلك فلم يمتلئ بل ازداد فقرا وحرصا إلى أن امتلأ جوفه بالتراب الذي خلق منه ، فرجع إلى مادته الترابية التي خلق منها هو وماله . ولم تتكامل مادته بامتلاء جوفه من العلم والإيمان الذي بهما كماله وفلاحه وسعادته في معاشه ومعاذه .

فالمال إن لم ينفع صاحبه ضره ولا بد ، وكذلك العلم والملك والقدرة ، كل ذلك إن لم ينفعه ضره ، فإن الأمور وسائل لمقاصد يتوسل بها إليها في الخير والشر ، فإن عطلت عن التوسل بها إلى المقاصد والغايات المحموده توسل بها إلى أضدادها .

فأربح الناس من جعلها وسائل إلى الله والدار الآخرة ، وذلك الذي ينفعه في معاشه ومعاذه ، وأخسر الناس من توسل بها إلى هواه ونيل شهواته وأغراضه العاجلة فخسر الدنيا والآخرة ، فهذا لم يجعل الوسائل مقاصد ولو جعلها كذلك لكان خاسرا ،

(١) أخرجه مسلم [٧٢٥/٢ عبد الباقي] ، وأحمد [٢٤٣/٣] من حديث أنس رضي الله عنه بلفظ [لو كان لابن آدم واديان من مال لا يتغى إليهما ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب] .

لكنه جعلها وسائل إلى ضد ما جُعلت له ، فهو بمثابة من توسل بأسباب اللذة إلى أعظم الآلام وأدوائها .

الصبر والشكر ضروريان للمؤمن

وإذا عرف أن الغنى والفقر والبلاء والعافية فتنة وابتلاء من الله لعبده يمتحن بها صبره وشكره ، علم أن الصبر والشكر مطيتان للإيمان لا يُحمل إلا عليهما ، ولا بد لكل مؤمن منهما ، وكل منهما في موضعه أفضل ، فالصبر في مواطن الصبر أفضل ، والشكر في مواضع الشكر أفضل ، هذا إن صح مفارقة كل واحد منهما للآخر وتجريده عنه وهو فرض ذهني ولا يوجد في الخارج .

الباب التاسع عشر :

الأمور المضادة للصبر والمنافية له والقاذحة فيه

لما كان الصبر حبس اللسان عن الشكوى إلى غير الله ، والقلب عن التسخط ، والجوارح عن اللطم وشق الثياب ونحوها ، كان ما يضاده واقعا على هذه الجملة فمناه : الشكوى إلى المخلوق ، فإذا شكى العبد ربه إلى مخلوق مثله فقد شكى من يرحمه إلى من لا يرحمه . ولا تضاده الشكوى إلى الله كما تقدم في شكاية يعقوب إلى الله مع قوله : ﴿ فصبر جميل ﴾ [يوسف : ١٨ ، ٨٣] .

الشكوى المباحة

وأما إخبار المخلوق بالحال فإن كان للاستعانة بإرشاده أو معاونته والتوصل إلى زوال ضرورة لم يقدح ذلك في الصبر ، كإخبار المريض للطبيب بشكايته ، وإخبار المظلوم لمن ينتصر به بحاله ، وإخبار المبتلى ببلائه لمن كان يرجو أن يكون فرجه على يديه ، وقد كان النبي ﷺ إذا دخل على المريض يسأله عن حاله ويقول : « كيف تجدك ؟ » وهذا استخبار منه واستعلام بحاله .

هل يقدح الأنين في الصبر ؟

وأما الأنين فهل يقدح في الصبر ؟ فيه روايتان عن الإمام أحمد . قال أبو الحسين : أصحهما الكراهة ؛ لما روى عن طاووس أنه كان يكره الأنين في المرض . وقال مجاهد : كل شيء يكتب على ابن آدم مما يتكلم به ، حتى أنينه في مرضه . قال هؤلاء : وإن الأنين شكوى بلسان الحال ينافي الصبر .

والرواية الثانية : أنه لا يكره ، ولا يقدر في الصبر . قال بكر بن محمد عن أبيه : سئل أحمد عن المريض يشكو ما يجد من الوجع ، فقال : تعرف فيه شيئا عن رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، حديث عائشة : « وأرأساه »^(١) وجعل يستحسنه .

والتحقيق : أن الأثنين على قسمين : أنين شكوى فيكره ، وأنين استراحة وتفرج فلا يكره ، والله أعلم .

وقد روى في أثر : أن المريض إذا بدأ بحمد الله ثم أخبر بحاله لم يكن شكوى . وقال شقيق البلخي : من شكى من مصيبة نزلت به إلى غير الله لم يجد في قلبه حلاوة لطاعة الله أبدا .

أنواع الشكوى

والشكوى نوعان : شكوى بلسان المقال . وشكوى بلسان الحال ، ولعلها أعظمها . وأعظم من ذلك من يشتكى ربه وهو بخير ، فهذا أمقت الخلق عند ربه . عن عبد الله بن شقيق قال : قال كعب الأحبار : « إن من حسن العمل سبحة الحديث ، ومن شر العمل التحذيف » . قيل لعبد الله : ما سبحة الحديث ؟ قال : سبحان الله وبحمده في خلال الحديث . قيل : فما التحذيف ؟ قال : يصيح الناس بخير فيسألون فيزعمون أنهم بشر .

أمور أخرى تنافي الصبر

ومما ينافي الصبر : شق الثياب عند المصيبة ، ولطم الوجه ، والضرب بإحدى اليدين على الأخرى ، وحلق الشعر ، والدعاء بالويل . ولهذا برىء النبي ﷺ ممن صلق وحلق وخرق . (صلق) : رفع صوته عند المصيبة ، (وحلق) : رأسه : وشق ثيابه .

(١) أخرجه البخاري [٥٦٦٦] من حديث عائشة رضي الله عنها .

ولا ينافيه البكاء والحزن قال تعالى عن يعقوب : ﴿ وَايَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف : ٨٤] . قال قتادة : بكظم على الحزن فلم يقل إلا بخرا .
وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « ما كان من العين ومن القلب فمن الله والرحمة ، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان » (١) .

وقال بكر بن عبد الله المزني : « كان يقال : من إلاستكائة الجلوس في البيت بعد المصيبة » .

وقال عبيد بن عمر : « ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب ، ولكن الجزع القول السيء والظن السيء » .

وسئل القاسم بن محمد عن الجزع فقال : « القول السيء والظن السيء » .
ومات ابن لبعض قضاة البصرة ، فاجتمع إليه العلماء والفقهاء فتذاكروا ما يتبين به جزع الرجل من صبره ، فاجمعوا أنه إذا ترك شيئاً مما كان يصنعه فقد جزع .

وقال الحسين بن عبد العزيز الحوري : مات ابن لي نفيس ، فقلت لأمه : اتقى الله واحتسبيه واصبري ، فقالت : مصيبتى به أعظم من أن أفسدها بالجزع .

وقال عبد الله بن المبارك : أتى رجل يزيد بن يزيد وهو يصلي وابنه في الموت ، فقال : ابنك يقضى وأنت تصلى ؟ فقال : إن الرجل إذا كان له عمل يعمل فتركه يوماً واحداً كان ذلك خلافاً في عمله .

وقال ثابت : أصيب عبد الله بن مطرف بمصيبة فرأته أحسن شيء هيئة وأطيبه ريحاً ، فذكرت له ما رأيت ، فقال : تأمرني يا أبا محمد أن أستكين للشيطان وأريه أنه قد أصابني سوء ؟ والله يا أبا محمد لو كانت لي الدنيا كلها ثم أخذها مني (يعني : الله) ثم سقاني شربة يوم القيامة ما رأيتها ثمناً لتلك الشربة .

ومما يقدح في الصبر إظهار المصيبة والتحدث بها ، وكتبتها رأس الصبر .

(١) أخرجه أحمد [٢٣٧/١] لفظ [إنه مهما كان من العين ...] قال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على المسند [٢١٢٧] : استاده صحيح .

ولما نزل في إحدى عيني عطاء الماء مكث عشرين سنة لا يعلم به أهله حتى جاء
ابنه يوما من قبل عينيه فعلم أن الشيخ قد أصيب .

الهلوع يضاد الصبر

ويضاد الصبر الهلوع : وهو الجزع عند ورود المصيبة ، والمنع عند ورود النعمة ،
قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ
مَنُوعًا ﴾ [المعارج : ١٩ - ٢١] ، وهذا تفسير الهلوع .

قال جوهرى : الهلوع أفحش الجزع .

وإذا أردت معرفة الهلوع فهو الذى إذا أصابه الجوع مثلا أظهر الاستجاعة
وأسرع بها ، وإذا أصابه الألم أسرع الشكاية وأظهرها ، وإذا أصابه القهر أظهر
الاستطامة والاستكانة وباء بها سريعا ، وإذا أصابه الجوع أسرع الانطراح على جنبه
وأظهر الشكاية ، وإذا بدا له مأخذ طمع طار إليه سريعا ، وإذا ظفر به أحله من نفسه
محل الروح ، فلا احتمال ولا إفضال . وهذا كله من صغر النفس ودناءتها وتدسيسها في
البدن وإخفائها وتحجيرها .. والله المستعان .

الباب العشرون:

دخول الصبر والشكر في صفات الرب جل جلاله وتسميته بالصبور والشكور

أما الصبر فقد أطلقه عليه أعرف الخلق به وأعظمهم تنزيها له بصيغة المبالغة ففى الصحيحين عن أنى موسى بن النبى ﷺ قال : « ما أحد أصبر على أذى سمسه من الله عز وجل ، يدعون له ولدا وهو يعافهم ويرزقهم !! » (١) .

وفى أسمائه الحسنى الصبور ، وهو من أمثلة المبالغة ، أبلغ من الصابر والصبار . وصبره تعالى يفارق صبر المخلوق ولا يماثله من وجوه متعددة منها : أنه عن قدرة تامة . ومنها : أنه لا يخاف القوت ، والعبد إنما يستعجل لخوف القوت . ومنها : أنه لا يلحقه بصبره ألم ولا حزن ولا نقص بوجه ما .

وظهور أثر الاسم فى العالم مشهود بالعيان كظهور اسمه الحليم ، والفرق بين الصبر والحلم أن الصبر ثمرة الحلم وموجبة ، فعلى قدر حلم العبد يكون صبره . فالحلم من صفات الرب تعالى أوسع من الصبر . ولهذا جاء اسمه الحليم فى القرآن فى غير موضع ، ولسعته يقرنه سبحانه باسم العليم كقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥١] وقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ [النساء : ١٢] .

وفى أثر أن حملة العرش أربعة : اثنان يقولان : سبحانك اللهم وبحمديك ، لك الحمد على حلمك بعد علمك . واثنان يقولان : سبحانك اللهم وبحمديك ، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك .

فإن المخلوق يحلم عن جهل ويعفو عن عجز ، والرب تعالى يحلم مع كمال علمه ويعفو مع تمام قدرته . وما أضيف شىء إلى شىء أزين من حلم إلى علم ، ومن عفو إلى

(١) أخرجه البخارى [٥١١/١٠ فتح] ومسلم [٥١٦/٤ عدد الباقى] نحوه . من حديث أنى موسى الأشرى رضى الله عنه .

اقتدار ، ولهذا كان في دعاء الكرب وصفه سبحانه بالحلم مع العظمة ، وكونه حلّيمًا من لوازم ذاته سبحانه .

وأما صبره سبحانه فمتعلق بكفر العباد وشركهم ومسيبتهم له سبحانه وأنواع معاصيهم وفجورهم ، فلا يزعجه ذلك لكه إلى تعجيل العقوبة ، بل يصبر على عبده ويمهله ويستصلحه ، ويفرق به ويحلم عنه ، حتى إذا لم يبق فيه موضع للصنعة ، ولا يصلح على الإمهال والرفق والحلم ، ولا ينبغي إلى ربه ويدخل عليه لا من باب الإحسان والنعم ، ولا من باب البلاء والثَّـم ، أخذه أخذ عزيز مقتدر ، بعد غاية الإعذار إليه وبذل النصيحة له ودعائه إليه من كل باب . وهذا كله من موجبات صفة حلمه وهي صفة ذاتية له لا تزول .

وأما الصبر فإذا زال متعلقه كان كسائر الأفعال التي توجد لوجود الحكمة وتزول بزوالها . ولو أن من أعرضوا عن اسمه « الصبور » أعطوا هذا الاسم حقه لعلّموا أن الرب تعالى أحق به من جميع الخلق ، كما هو أحق باسم العليم والرحيم والقدير والسميع والبصير والحي وسائر أسمائه الحسنی من المخلوقين ، وأن التفاوت الذي بين صبره سبحانه وصبرهم كالتفاوت بين حياته وحياتهم وعلمه وعلمهم وسمعه وأسماعهم . وكذا سائر صفاته .

ولما علم ذلك أعرف خلقه به قال : « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله » ، فعلم أرباب البصائر بصبره سبحانه كعلمهم برحمته وعفوه وستره ، مع أنه صبر مع كمال علم وقدره وعظمة وعزة ، وهو صبر عن أعظم مصبور عليه ، فإن مقابلة أعظم العظماء وملك الملوك وأكرم الأكرمين ومن إحسانه فوق كل إحسان بغاية القبح وأعظم الفجور وأفحش الفواحش ، ونسبته إلى كل ما لا يليق به ، والقدح في كماله وأسمائه وصفاته ، والإلحاد في آياته ، وتكذيب رسله عليهم السلام ، ومقابلتهم بالسب والشتم والأذى ، وتحريق أوليائهم وقتلهم وإهانتهم ، أمر لا يصبر عليه إلا الصبور الذي لا أحد أصبر منه ، ولا نسبة لصبر الخلق من أولهم إلى آخرهم إلى صبره سبحانه .

وإذا أردت معرفة صبر الرب تعالى وحلمه والفرق بينهما فتأمل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ، وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ

بعده ، إنه كان حليماً غفوراً ﴿ فاطر : ٤١ ﴾ ، وقوله : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئا إذا * تكاد السموات ينفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا * أن دعوا للرحمن ولدا ﴾ [عريم : ٨٨ - ٩١] ، وقوله : ﴿ وإن كان مكرهم لئزول منه الجبال ﴾ [إبراهيم : ٤٦] على قراءة من فتح اللام ، فأخير سبحانه أن حلمه ومغفرته يمنعان نزول السموات والأرض ، فالحلم وإمساكهما أن تزولا هو الصبر ، فيحلمه صبرا عن معالجة أعدائه .

وفي الآية إشعار بأن السموات والأرض تهم وتستأذن بالزوال لعظم ما يأتي به العباد ، فيمسكها بحلمه ومغفرته ، وذلك حبس عقوبته عنهم وهو حقيقة صبره تعالى ، فالذى يصدر عنه الإمساك هو صفة الحلم ، والإمساك هو الصبر وهو حبس العقوبة .

وكذلك خرورجبال وتفطير^(٢) السموات ، الرب تعالى يحبسهما عن ذلك بصبره وحلمه . فإن ما يأتي به الكفار والمشركون والفجار في مقابلة العظمة والجلال والإكرام يقتضى ذلك . فجعل سبحانه في مقابلة هذه الأسباب أسبابا يحبها ويرضاها ويفرح بها أكمل فرح وأتمه ، تقابل تلك الأسباب التى هى سبب زوال العالم وخرابه ، فدفعت تلك الأسباب وقاومتها .

وكان هذا من آثار مدافعه رحمته لغضبه وغلبتها له وسبقها إياه ، فغلب أثر الرحمة أثر الغضب كما غلبت الرحمة الغضب .

ولهذا استعاذ النبى ﷺ بصفة الرضا من صفة السخط وبفعل المعافاة من فعل العقوبة ، ثم جمع الأمرين فى الذات إذ هما قائمان بها ، فقال : « أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بعفوك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك »^(٣) .

فتأمل ما تحت قوله : « أعوذ بك منك » من محض التوحيد وقطع الالتفات إلى غيره ، وتكميل التوكل عليه تعالى والاستعانة به وحده ، وإفراده بالخوف والرجاء ، ودفع الضر وجلب الخير ، وهو الذى يمس بالضر بمشيئته ، وهو الذى يدفعه بمشيئته ،

(٢) تفطير السموات : تشققها .

(٣) أخرجه مسلم [٣٥٢/١] وأبو داود [٨٧٩] والنسائى [١٦٩] وابن ماجه [٣٨٤١] من حديث عائشة رضى الله عنها .

وهو المستعاذ بمشيئته من مشيئته ، وهو المعيد من فعله بفعله ، وهو الذى - سبحانه - خلق ما يصبر عليه وما يرضى به ، فإذا أغضبه معاصى الخلق وكفرهم وشركهم وظلمهم ، أرضاه تسبيح ملائكته وعبادة المؤمنين له ، وحمدهم آياه ، وطاعتهم له ، فيعبد رضاه من غضبه .

ولما كان اسم الحليم أدخل فى الأوصاف واسم الصبور فى الأفعال ، كان الحلم أصل الصبر فوق الاستغناء بذكره فى القرآن عن اسم الصبور . والله أعلم .

الله سبحانه وتعالى هو الشكور

وأما تسميته سبحانه بالشكور فهو فى حديث أبى هريرة ، وفى القرآن تسميته شاكراً ؛ قال الله تعالى : ﴿ وكان الله شاكراً عليماً ﴾ [النساء : ١٤٧] ، وتسميته أيضاً شكور ، قال الله تعالى : ﴿ والله شكور حليم ﴾ [التغابن : ١٧] وقال تعالى : ﴿ إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً ﴾ [الإنسان : ٢٢] فجمع لهم سبحانه بين الأمرين : أن شكر سعيهم ، وأثابهم عليه . والله تعالى يشكر عبده إذا أحسن طاعته ، ويغفر له إذا تاب إليه ، فيجمع للعبد بين شكره لإحسانه مغفرته لإساءته ، إنه غفور شكور .

وشكر الرب تعالى ليس كشكر الإنسان ، بل له شأن آخر كشأن صبره ، فهو أولى بصفة الشكر من كل شكور ، بل هو الشكور على الحقيقة . فإنه يعطى العبد ويوفقه لما يشكره عليه ، ويشكر القليل من العمل والعطاء فلا يستقله أن يشكره ، ويشكر الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف مضاعفة ، ويشكر عبده بقوله بأن يثنى عليه بين ملائكته وفى ملكه الأعلى ، ويلقى له الشكر بين عبادته ، ويشكره بفعله : فإذا ترك شيئاً أعطاه أفضل منه ، وإذا بذل له شيئاً رده عليه أضعافاً مضاعفة ، وهو الذى وفقه للترك والبذل ، وشكره على هذا وذاك .

ولما عقر نبيه سليمان الخيل غضباً له إذ شغلته عن ذكره فأراد ألا تشغله مرة أخرى أعاضه عنها متن الریح .

ولما ترك الصحابة ديارهم وخرجوا منها في مرضاته أعاضهم عنها أن ملكهم الدنيا وفتحها عليهم .

ولما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن شكر له ذلك بأن مكن له في الأرض يتبوا منها حيث يشاء .

ولما بذل الشهداء أبدانهم له حتى مزقها أعداؤه شكر لهم ذلك بأن أعاضهم منها طيرا خضرا أقر أرواحهم فيها ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها إلى ويوم البعث ، فيردها عليهم أكمل ما تكون وأجمله وأباه .

ولما بذل رسله أعراضهم فيه لأعدائهم فالوا منهم وسبواهم أعاضهم من ذلك بأن صلى عليهم هو وملائكته ، وجعل لهم أطيب الثاء في سمواته وبين خلقه ، فأخلصهم بخالصة ذكرى الدار .

ومن شكره سبحانه : أنه يجازى عدوه بما يفعله من الخير والمعروف في الدنيا ويخفف به عنه يوم القيامة ، فلا يضيع عليه ما يعمله من الإحسان وهو من أبغض خلقه إليه .

ومن شكره : أنه غفر للمرأة البغى بسقيا كلباً كان قد جهده العطش حتى أكل الثرى . وغفر لآخر بتنجيته غصن شوك عن طريق المسلمين .

فهو سبحانه يشكر العبد على إحسانه لنفسه ، والمخلوق إنما يشكر من أحسن إليه . وأبلغ من ذلك أنه سبحانه هو الذى أعطى العبد ما يحسن به إلى نفسه ، وشكره على قليله بالأضعاف المضاعفة التى لا نسبة لإحسان العبد إليها ، فهو المحسن بإعطاء الإحسان وإعطاء الشكر ، فمن أحق باسم الشكور منه سبحانه ؟!

وتأمل قوله سبحانه : ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ، وكان الله شاكرا عليما ﴾ [النساء : ١٤٧] ، كيف تجدد في ضمن هذا الخطاب أن شكره تعالى يأبى تعذيب عباده سدى بغير جرم ، كما يأبى إضاعة سعيهم باطلا ، فالشكور لا يضيع أجر محسن ولا يعذب غير مسيء .

وفي هذا رد لقول من زعم أنه سبحانه يكلفه ما لا يطيق ، ثم يعذبه على ما لا يدخل تحت قدرته ، تعالى الله عن هذا الظن الكاذب والحسبان الباطل علوا كبيرا .
فشكره سبحانه يقتضى أن لا يعذب المؤمن الشكور ولا يضيع عمله ، وذلك من لوازم هذه الصفة ، فهو منزّه عن خلاف ذلك كما ينزه عن سائر العيوب والنقائص التى تنافى كماله وغناه وحمده .

ومن شكره سبحانه : أن العبد من عباده يقول له مقاما يرضيه بين الناس فيشكره له وينوه بذكره ويخبر به ملائكته وعباده المؤمنين ، كما شكر لمؤمن آل فرعون ذلك المقام وأثنى به عليه ونوه بذكره بين عباده .

وكذلك شكره لصاحب يس مقامه ودعوته إليه . فلا يهلك عليه - بين شكره ومغفرته - الإهلاك ، فإنه سبحانه غفور شكور يغفر الكثير من الزلل ، ويشكر القليل من العمل .

ولما كان سبحانه هو الشكور على الحقيقة ، كان أحب خلقه إليه من اتصف بصفة الشكر ، كما أن أبغض خلقه إليه من عطلها واتصف بضدها . وهذا شأن أسمائه الحسنى ، أحب خلقه إليه من اتصف بموجيها ، وأبغضهم إليه من اتصف بأضدادها ، ولهذا يبغض الكفور والظالم والجاهل والقاسى القلب والبخيل والجبان المهين واللقيم .

وهو سبحانه جميل يحب الجمال ، عليم يحب العلماء ، رحيم يحب الراحمين ، محسن يحب المحسنين ، شكور يحب الشاكرين ، صبور يحب الصابرين ، جواد يحب أهل الجود ، ستار يحب أهل الستر ، قادر يلوم على العجز ، والمؤمن القوى أحب إليه من المؤمن الضعيف ، عفو يحب العفو ، وتر يحب الوتر . وكل ما يحبه فهو من آثار أسمائه وصفاته وموجيها ، وكل ما يبغضه فهو مما يضادها وينافىها .

مخاطبة

في بيان عفو الله وكرمه وسعة مغفرته

يا من عزم على السفر إلى الله والدار الآخرة ، قد رقع لك علم تشمر إليه فقد
أمكن التشمير ، وأجعل شرك من مطالعة منته ومشاهدة عيب النفس والعمل
والتقصير . فما أبقى مشهد النعمة والذنب للعارف من حسنة يقول : هذه منجيتي من
عذاب السعير ، ما المغول إلا على حفوفهم ومغفرته فكل أحد إليهما فقير . أبوء لك بنعمتك
على وأبوء بذنبي ، فأغفر لي أنا المذنب المسكين . وأنت المرحم الغفور

ما تساوى أعمالك - لو سلمت مما يبطئها - أدنى نعمة من نعمه عليك ، وأنت
مرتين بشكرها من حين أرسل بها إليك ، فهل رعينها - حق برعايتها - وهي في
تصريفك وطوع يديك ؟ فتعلق بحبل الرجاء ، ادخل من باب الرحمة ، لا تطلب إلا الله .
﴿ إنه غفور شكور ﴾ [فاطر : ١٠]

نَهَج^(١) للبعد طريق النجاة وفتح له أبوابها ، وعرفه طرق تحصيل السعادة وأعطاه
أسبابها ، وحذره من وبال معصيته وأشهدته - على نفسه وعلى غيره - شؤمها وعقابها .
وقال : إن أطعت فبفضلي وأنا أشكر ، وإن عصيت فبقضائي وأنا أغفر ﴿ إن ربنا لغفور
شكور ﴾ [فاطر : ٣٤] .

أزاح عن العبد العلل ، وأمره أن يستعيز به من العجز والكسل ، ووعد أنه
يشكر له القليل من العمل ويغفر له الكثير من الزلل ﴿ إن ربنا لغفور شكور ﴾ .
أعطاه ما يشكر عليه ، ثم يشكره على إحسانه إلى نفسه لا على إحسانه إليه ،
ووعد على إحسانه لنفسه أن يحسن جزاءه ويقربه لديه ، وأن يغفر له خطاياها إذا تاب منها
ولا يفضحه بين يديه ﴿ إن ربنا لغفور شكور ﴾ .

(١) النهج : البين الواضح .

وثقت بعفوه هفوات المذنبين فوسعتها ، وعكفت بكرمه آمال المحسنين فما قطع طمعها ، وخرقت السبع الطباق دعوات التائبين والسائلين فسمعها ، ووسع الخلائق عفوه ومفغرتة ورزقه ﴿﴾ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ﴿﴾ [هود : ٦] ﴿﴾ إن ربنا لغفور شكور ﴿﴾ .

يجود على عبيده بالنوال قبل السؤال ، ويعطى سائله ومؤمله فوق ما تعلقت به منهم الآمال ، ويغفر لمن تاب إليه ولو بلغت ذنوبه عدد الأمواج والحصى والتراب والرمال ﴿﴾ إن ربنا لغفور شكور ﴿﴾ .

أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، وأفرح بتوبة التائب من الفاقد لراحته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا وجدها ، وأشكر للقليل من جميع خلقه ، فمن تقرب إليه بمثقال ذرة من الخير شكرها وحمدها ﴿﴾ إن ربنا لغفور شكور ﴿﴾ .

تعرف إلى عباده بأسمائه وأوصافه ، وتحب إليهم بحلمه وآلائه ، ولم تمنعه معاصيهم بأن جاد عليهم بآلائه ، ووعد من تاب إليه وأحسن طاعته بمغفرة ذنوبه يوم لقائه ﴿﴾ إن ربنا لغفور شكور ﴿﴾ .

السعادة كلها في طاعته ، والأرباح كلها في معاملته ، والحن والبلايا كلها في معصيته ومخالفته ، فليس للعبد أنفع من شكره وتوبته ﴿﴾ إن ربنا لغفور شكور ﴿﴾ .

أفاض على خلقه النعمة ، وكتب على نفسه الرحمة ، وضمن الكتاب الذي كتبه أن رحمته تغلب غضبه ﴿﴾ إن ربنا لغفور شكور ﴿﴾ يطاع فيشكر وطاعته من توفيقه وفضله ، ويعصى فيحلم ومعصية العبد من ظلمه وجهله ، ويتوب إليه فاعل القبيح فيغفر له ، حتى كأنه لم يكن قط من أهله ﴿﴾ إن ربنا لغفور شكور ﴿﴾ .

الحسنة عنده بعشر أمثالها أو يضاعفها بلا عدد ولا حسابان ، والسيئة عنده بواحدة ومصيرها إلى العفو والغفران ، وباب التوبة مفتوح لديه منذ خلق السموات والأرض إلى آخر الزمان ﴿﴾ إن ربنا لغفور شكور ﴿﴾ .

بابه الكريم مناخ الآمال ومحط الأوزار ، وسماء عطاياه لا تقلع عن الغيث بل هي مدرار ، ويمينه ملأى لا تغيضها نفقة سخاء الليل والنهار ﴿﴾ إن ربنا لغفور شكور ﴿﴾ .

لا يلقي وصاياه إلا الصابرون ، ولا يفوز بعطاياه إلا الشاكرون ، ولا يهلك عليه إلا الهالكون ، ولا يشقى بعذابه إلا المتمردون ﴿ إن ربنا لغفور شكور ﴾ .

فإياك أيها المتمرد أن يأخذك على غرة فإنه غيور ، وإذا أقمت على معصيته وهو يملك بضعته فأخذه فإنه لم يملك لكنه صبور وبشراك أيها التائب بمغفرته ورحمته ﴿ إنه غفور شكور ﴾ .

من علم أن الرب شكور تنوع في معاملته ، ومن عرف أنه واسع المغفرة تعلق بأذيال مغفرته ، ومن علم أن رحمته سبقت غضبه لم يئأس من رحمته ﴿ إن ربنا لغفور شكور ﴾ .

ومن تعلق بصفة من صفاته أخذته بيده حتى تدخله عليه ، ومن سار إليه بأسمائه الحسنى وصل إليه ، ومن أحبه أحب أسمائه وصفاته وكانت أثر شيء لديه .

حياة القلوب في معرفته ومحبه ، وكال الجوارح في التقرب إليه بطاعته والقيام بخدمته ، وكال الألسنة بذكره والثناء عليه بأوصاف مدحته . فأهل شكره أهل زيادته ، وهل ذكره أهل مجالسته ، وأهل طاعته أهل كرامته ، وأهل معصيته لا يقنطهم من رحمته ، إن تابوا فهو حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فهو طيبهم ، يبتليهم بأنواع المصائب ليكفر عنهم الخطايا ويظهرهم من المعائب ﴿ إنه غفور شكور ﴾ .

والحمد لله رب العالمين ، حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى ، وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله ، حمدا يملأ السموات والأرض وما بينهما وما شاء ربنا من شيء بعد بمجامع حمده كلها ما علمنا منها وما لم نعلم ، عدد ما حمده الحاملون ، وغفل عن ذكره الغافلون ، وعدد ما جرى به قلمه وأحصاه كتابه وأحاط به علمه .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين . ورضى الله عن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

تم بحمد الله

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
المقدمة ..	٣
مقدمة المؤلف ..	٥
الباب الأول : معنى الصبر لغة ..	١٠
الباب الثاني : حقيقة الصبر ..	١١
الباب الثالث : الفرق بين الصبر والتصبر والاصطبار والمصابرة ..	١٤
الباب الرابع : انقسام الصبر باعتبار محله ..	١٥
الباب الخامس : قوة الصبر وضعفه ..	١٧
من أذله عقله ودينه أذله الله ..	١٨
قوة الصبر حسب قوة الدين ..	١٩
الباب السادس : أقسام الصبر باعتبار متعلقه ..	٢١
الباب السابع : انقسام الصبر باعتبار الأحكام الخمسة ..	٢٣
الصبر المحذور ..	٢٣
هل يجوز سؤال الناس عند الخمصة ؟ ..	٢٤
من الصبر المكروه ..	٢٥
الصبر المباح ..	٢٥
الباب الثامن : بيان تفاوت درجات الصبر ..	٢٦
الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر ..	٢٧
أى أنواع الصبر أفضل ؟ ..	٢٨
الباب التاسع : انقسام الصبر إلى محمود ومذموم ..	٣٢
الصبر المذموم ..	٣٢
الصبر المحمود ..	٣٢

الصفحة

الموضوع

٣٤	الباب العاشر : الفرق بين صبر الكرام وصبر اللئام
٣٥	الباب الحادى عشر : الأسباب التى تعين على الصبر
٣٥	دواء العشق
٣٧	تقوية باعث الدين
٤٣	الباب الثانى عشر : أهمية الصبر للإنسان فى جميع أحواله
٤٤	مرارة الصبر على ما يوافق الهوى
٤٥	الصبر على ما يخالف الهوى
٤٥	(أ) ما يرتبط باختيار العبد
٤٦	كيفية الصبر عن عن المعصية
٤٦	(ب) الصبر على ما لا يرتبط باختيار العبد
٤٧	الصبر على أذى الناس
٤٧	(ح) ما يكون وروده باختيار العبد
٤٨	تلاعب الشيطان بأصحاب العشق وغيرهم
٤٨	هل يثاب المبتلى فى صبره على التخلص من بلواه
٤٩	الباب الثالث عشر : أشق الصبر على النفوس
٥٢	الباب الرابع عشر : ذكر ما ورد فى الصبر من نصوص السنة
٦٣	الباب الخامس عشر : الآثار الواردة عن الصحابة ومن بعدهم فى فضيلة الصبر
	الباب السادس عشر : أمور تتعلق بالمصيبة من البكاء والندب وشق الثياب
٦٦	ودعوى الجاهلية ونحوها
٦٦	(أ) البكاء
٦٧	(ب) الندب والنياحة
٧٠	هل يعذب الميت بالبكاء عليه ؟
٧١	معنى العذاب الوارد فى الأحاديث
٧٣	الباب السابع عشر : حقيقة الشكر وما هيته

الموضوع	الصفحة
أقوال الناس في الشكر	٧٣
كيف يكون الشكر ؟ والفرق بين الشكر والحمد	٧٥
تلازم الصبر والشكر	٧٥
الباب الثامن عشر : تنازع الناس في الأفضل من الصبر ، والشكر	٧٦
أساس الفضل : التقوى	٧٦
الرسول ﷺ كان أصبر الخلق وأشكرهم	٧٧
الصبر والشكر ضروريان للمؤمن	٨٠
الباب التاسع عشر : الأمور المضادة للصبر والمنافية له والقاذبة فيه	٨١
الشكوى المباحة	٨١
هل يقدح الأنين في الصبر ؟	٨١
أنواع الشكوى	٨٢
أمور أخرى تنافي الصبر	٨٢
الهلل يضاد الصبر	٨٤
الباب العشرون : دخول الصبر والشكر في صفات الرب جل جلاله وتسميته	
بالصبر الشكور	٨٥
الله سبحانه وتعالى هو الشكور	٨٨
خاتمة : في بيان عفو الله وكرمه وسعة مغفرته	٩١
محتويات الكتاب	٩٥

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٩ / ٨٩٣٠

مطابع الوفاء - المنصورة

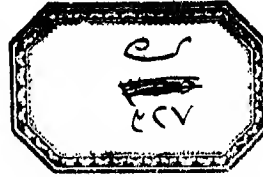
شارع الإنعام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN

صدر حديثا عن دار الصحابة بطنطا

يتقرب به اذ انتج عنده لانه من قواعد الساجي ولا ينبغي ان يقال
 قال الساجي لا لا وجر منصوصا له وان يكون قال به احتج به
 او اكثر من انا كان منصوصا وقد خرج عنه الاحتجاج بالاحتجاج
 واما بغيره فلا ينبغي ان يقال لانه من ذهب الساجي لان تجلس
 الاحتجاج به بل على ربه في سببته اليه وما اتفق عليه الا
 وقال لانه ليس بمنصوص فينبوع تقيده فيه ولكن لا يطلق
 انه من ذهب الساجي بل ذهب الساجية وما اتفقوا عليه
 ولم يعلم هو منصوص له اولا فينبوع اتباعه فيه وليس سببته
 اليه لان الظاهر من انما قصده ان قال به اتبعه وهذا القدر
 الذي اوردنا وكاف في حصوله العرض وبالله المستعان
 وعليه التكلان ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم
 واتخذ له زك العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله
 وحبه وسلم تسليمًا كثيرًا ايا ابدًا الي يوم الدين
 علفها بيد الفانية العتقير
 اليه جتد به على السخراوي
 في سادس عشر شعبان
 المبارك من سنه
 سنة ثمانين
 والعل
 ٢



فهرست النفوس في بيان حكم النفاط بالفلوس

تأليف الشيخ الامام العالم العلامة
 النور فائق الفاضل والعباس
 شرحه العلامة الحاج آية العباس
 احمد بن محمد المشهور بابي الكيم
 المصري ثم المقدسي الشافعي
 تقدمه امير المؤمنين
 ومفتي بركة

عقود
 ٤٤٤٦٢

حصول
 ١٠٧٣

شافعي
 صدر

